رواية
ארון הברית
تابوت العهد
رامي الجوهري
الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

(1)

مدينة أورشليم- عاصمة مملكة يهوذا-

587 ق.م

تلبدت السماء صباح ذلك اليوم وبدت مكفهرة تنذر بويل وصيب غزير بعد أن كستها غيوم كثيفة داكنة، حجبت شمسها ومنعت أشعتها الذهبية من التسلل خلسة، لتمنح الضوء والدفء لأرض ازدحمت عن آخرها بآلاف الجنود والفرسان، ومعدات حربية اصطفت بشكل محكم حول أسوار ضخمة شاهقة الارتفاع، أحاطتها إحاطة السوار بالمعصم، بينما شق ذلك الجواد طريقه عبرها بصعوبة، وهو يحمل على متنه فارسًا بدا على قدر كبير من الأهمية من نظرات اختلست إليه برهبة بين صفوف الجند المزدحمون حول خيمة ملكية كبيرة، نُصبت في وسط ميدان القتال على مشارف أسوار مدينة أورشليم الشامخة ومتاريسها الحصينة، التي ظلت مستعصية أمامهم بشكل مافر لمدة ثمانية عشر شهرًا قضوها أمامها، وهم يحاولون المرة تلو الأخرى فتح ثغرة ولو بسيطة بها، تساعدهم على شق طريقهم إلى داخل مدينة ازدادت عتيًا وعنادًا وقوة مع كل يوم يمر وهم فاشلون في اقتحامها.

مدينة أورشليم عاصمة مملكة يهوذا، تلك المملكة المارقة، التي رفعت رأسها بالعصيان أمام إرادة الإمبراطورية البابلية العظيمة، وإرادة ملكها القوي (نبوخذ نصر الثاني).. أشرس وأعظم الملوك الكلدانيين على مر التاريخ، رفضت دفع الجزية السنوية المقررة عليها، بل وحرّضت الممالك المجاورة على فعل المثل، فحقّت عليها غضبة الملك العظيم الذي جَرّد لها جيش جرار بغرض تأديبها وتأديب ملكها ليكونا عبرة لمَن يعتبر دون شفقة أو رحمة هذه المرة ..

كانت هذه المملكة وكأنها قد دأبت على العصيان حتى أصبح داء مقيت يحتاج إلى حل جذري.. قبل عشرة أعوام كاملة وفي العام الرابع لحكم الملك (نبوخذ نصر الثاني) تجرأ ملكها الأسبق (يهوياقيم) على الوقوف في وجه الإرادة العليا للإمبراطورية، رفض دفع الجزية، مستغلًا هزيمة خاطفة مني بها الجيش البابلي في مواجهة الجيش المصري، مما حدا بالملك العظيم أن يجتاح المدينة مذيقًا أهلها الويلات، سبى ملكها المارق (يهوياكين) الذي قاد العصيان بعد والده، ونصّب على العرش الأخ الأصغر لوالده (صدقيا) الذي أتى الآن وبعد عِقدٍ كامل ليكرر مسلسل العصيان من جديد ناكرًا فضلهم عليه.

دارت تلك الأفكار في عقل الفارس الذي ترجل عن جواده ودفع بلجامه نحو أحد الجنود المتمركزين أمام الخيمة، تناوله منه باحترام بالغ وهو ينحني نصف انحناءة لم يلحظها الفارس الذي دلف من فوره إلى الداخل، كانت الخيمة تشهد في ذاك الوقت حالة من التوتر الشديد، ظهر أثره على محيا جميع القادة المتواجدين إثر ثورة عارمة تنتاب مليكهم وقائدهم العظيم (نبوخذ نصر)، بدا الأخير مهيبًا بقامته الفارعة وحاجبيه الكثين وشعره الطويل المجدول، وقد انقلبت ملامحه وهو يصرخ بهم في هياج شديد:

- عليكم أن تحتلوا المدينة في أسرع وقت.. أريد ذلك الخائن (صدقيا) جاثيًا أسفل قدميّ.

أومأ الجميع برؤوسهم إيجابًا وهُم ينحنون احترامًا وتبجيلًا، دون أن يجرؤ أحدهم على التفوه بأي كلمة، حتى التقطت عينا الملك ذلك الفارس الذي دلف منذ لحظات فصاح:

- أقبِل يا (نبوزاردان).

تقدم (نبوزاردان) ليقف بين يدي الملك انحنى احترامًا بينما (نبوخذ نصر) يتساءل:

- هل توصلتم لشيء؟

أعتدل (نبوزاردان) وأجاب بسرعة بعد أن استشعر إهتمام الملك الشديد:

- لقد فحصنا كل شبر من الأسوار على مدار الأيام الماضية واستقر الرأي على أن نركّز هجومنا على الجانب الغربي منها، حيث بدا أضعف كثيرًا ويسهل اختراقه في الوقت القريب.

برقت عينا الملك بلهفة واضحة وهو يقول:

- إذن ابدأوا الاقتحام على الفور.. لا أريد أن تشرق شمس يوم جديد إلا وأنا جالس على عرش أورشليم.

ضم (نبوزاردان) قبضته اليمنى وضرب بها على صدره جهة القلب دلالة على الولاء، تبعه في ذلك جميع القادة المتواجدين قبل أن ينسحبوا الواحد تلو الآخر خلف (نبوزاردان) الذي توقف فجأة إثر هتاف أتاه على لسان الملك جمّده في مكانه:

- أحكِم حصارك حول المدينة فلا أريد لشيء أن يُفلت من قبضتنا.

التفت (نبوزاردان) إليه وقال بصرامة:

- لن تفلت بعوضة من غضبتنا.. لك عهدي على هذا يا مولاي .

قالها وضرب صدره بقبضته في إخلاص مجددًا ثم غادر الخيمة مع بقية القادة يتبعهم الملك بنظره قبل أن يأتيه تساؤل من رجل عجوز أشيب الشعر يحمل عصا غليظة يتكئ عليها وهو يقف بجوار العرش قائلًا:

- هل يأذن لي مولاي بكلمة؟

أجاب الملك باقتضاب:

- تحدث يا (آنور).

توكأ الحكيم الأكبر (آنور) على عصاه ليخطو خطوات قصيرة أصبح بعدها في مواجهة العرش تمامًا قبل أن يقول بحذر:

- مولاي بالتأكيد يعلم بشأن الحامية المصرية المتواجدة داخل المدينة.

زوى الملك ما بين حاجبيه وهو يتساءل بداخله عن المغزى الذي يقبع خلف كلمات حكيم مملكته لكنه قال بصرامة:

- أفصح عما بداخلك على الفور.

قال الحكيم (آنور) بحذر أكبر خشية غضبة مليكه التي لاتُذِر:

- أخشى يا مولاي أن قضاؤنا على تلك الحامية قد يثير حفيظة الملك المصري، فيحشد لنا جيشه وتدور رحى الحرب بيننا من جديد.

برقت عينا (نبوخذ نصر) من فرط الغضب وهو يتذكرهزيمة جيشه على يد الجيش المصري بقيادة (نخاو الثاني)، ذلك الملك المصري الشرس الذي أذاقه لأول مرة في حياته معنى الهزيمة، وكيف جرّت عليه هذه الهزيمة قلاقل واضطرابات وحالات من العصيان، رفع بها أمراء وحكام الأقاليم والممالك المحيطة رؤوسهم في وجهه.. جال بخاطره قوة الملك المصري الحالي (واح إيب رع) حفيد (نخاو الثاني) ورغبته الشديدة في استعادة مستعمرات مصر في الشرق وإعادة المجد والانتصار لأسرته.

- معذرة يا مولاي إن كنت قد كدّرت خاطرك.

نطق بها (آنور) بعد أن لاحظ شرود الملك واستغراقه في التفكير فجاوبه الأخير وهو يعابث بأصابعه شعر لحيته الغزير مفكرًا:

- ربما كان هذا سبب أدعى لجعلهم يأتون إلينا وقتما وأينما نشاء.

قال (آنور) والقلق يعتريه:

- لكن يا مولاي...

قاطعه الملك وهو ينهض من على عرشه متجهًا إلى منضدة كبيرة، وضع عليها مخطط محاكي لجغرافية المنطقة بأكملها قبل أن يضرب بقبضته بقوة على نقطة بعينها حيث تقبع المملكة المصرية قائلًا:

- طالما بقيت هذه المملكة سيبقى نفوذنا مهددًا هنا.

قال (آنور) بحذر متوتر:

- لكنها ستكون حرب طاحنة.

قال الملك بثقة:

- بل ستكون فرصة لنا للثأر من هزيمتنا السابقة.. لقد دحرناهم من قبل في كركميش حين تحالفوا مع الأشوريين ضدنا وبإمكاننا فعلها مجددًا.

ظهرت علامات الخوف على وجه (آنور)، بينما عقِد العزم في ملامح الملك الصارمة والذي ما أن أنهى جملته حتى دلف إلى حرم الخيمة جندي من جنود الحراسة، وقف باعتداد وثبات بعد أن ضرب قبضته على صدره منتظرًا إشارة الملك له بالحديث.

منحه الملك الإذن بإشارة من يده فقال بنبرات قوية:

- وفد من أورهليم يطلب الإذن في لقاء مولاي.

كانت مفاجأة مدوية ظهر أثرها على محيا (آنور) والملك (نبوخذ نصر).. أعطى الإذن لحارسه بإدخالهم، ففاب هذا الأخير لدقائق قبل أن يدلف ثلاثة رجال بدوا من رجال الكهنوت بزيهم الأزرق المميز والإزار الأحمر الذي عقدوه حول خاصرتهم، بينما تكلّل رؤوسهم أغطية رأس صغيرة من نفس اللون موشاه بخيوط ذهبية رفيعة، تقدم أكبرهم سنًا من الملك الذي عاد إلى عرشه قائلاً:

- السلام على الملك العظيم ابن خالد الذِكر (نبوبولاسر).

تريث الملك لبرهة، تبادل النظرات مع حكيم مملكته الأكبر قبل أن يرد قائلًا:

- أرى أن ملككم قد حمّلكم برسالة ينقذ بها رأسهالكلا مَن معه قبل أن أحيل مملكته إلى رمادٍ وركام.

انحنى الكاهن انحناءة كبيرة قبل أن يعتدل قائلًا في مداهنة:

- فطنة وفراسة الملك العظيم مضرب الأمثال في العالم أجمع.

لم ينطل الكلام المعسول على الملك فقال بصرامة:

- أبلغني بفحوى الرسالة.

التقط الكاهن شهيقًا عميقًا زفره في توتر وبدأ قائلًا:

- مولاي الملك (صدقيا) ابن الملك (يوشيا)، يعرض اتفاقًا يتم بمقتضاه تسليم المدينة دون قتال.. حقنًا للدماء ومنعًا لإزهاق المزيد من الأرواح بلا طائل.

زوى (نبوخذ نصر) ما بين حاجبيه متسائلًا بريبة:

- وماذا يريد ملككم في مقابل هذا الاتفاق؟

أجاب الكاهن بسرعة وكأنه ينتظر هذا السؤال للخلاص من حِمل الرسالة الثقيل الذي يُرهق كاهله:

- أن تسمح لمَن يريد الرحيل مع الملك وأسرته بالخروج الآمن، معهم كل ما سيرغبون في الاحتفاظ به من قدس الأقداس، بالإضافة لتعهدك الذي لا رجعة فيه بالإبقاء على حياة كل مَن يرغب في البقاء داخل أسوار المدينة، والحفاظ على سلامة الهيكل المقدّس.

ضيّق الملك عينيه مفكرًا في العرض وأهواؤه تنازعه ما بين القبول لإنهاء الحصار الذي طال أمده، حفاظًا على أرواح جنوده وسلامة قوة جيشه وعتاده، والرفض لرغبته القاهرة في تأديب ذلك المارق (صدقيا) والانتقام منه ومن مملكته وجعلهما عبرة أمام كل مَن يتجرأ بعد ذلك على تحديه والوقوف أمام رغباته وأوامره..

كان لكل خيار وجاهته وما يميّزه ويحثه على قبوله، لكن ظل الشك بداخله قائمًا. ذلك العابث الصغير الذي تسلل رويدًا رويدًا لقلبه ومنه إلى عقله كان يقف حجر عثرة في طريق موافقته كما أن كبرياؤه كان يأبى إلا أن يدك المدينة على رؤوس مَن فيها.

طال استغراق الملك في لُجة أفكاره وهواجسه، فقال الكاهن يستحثه على القبول:

- أرجو من الملك العظيم أن يتخذ القرار الصواب الذي يحفظ به الأرواح ويحقق له مآربه.

كان تردد الملك وعجزه عن اتخاذ قرار يصيبانه بحالة من الضيق والغضب

اللذان أفصحا عن نفسيهما بكل وضوح في نبرات صوته حين صاح:

- انتظر ومَن معك بالخارج، سيصلك الرد القاطع بعد قليل.

انحنى الكاهن ومن خلفه تابعيه قبل أن يغادروا الخيمة تاركين الملك (نبوخذ نصر) يلتفت من فوره نحو (آنور) حكيم مملكته الأكبر الذي ظل طوال فترة تواجدهم داخل الخيمة صامتًا، والذي ما أن نظر له الملك حتى هز رأسه ببطء يمينًا ويسارًا في رفض.

*****

(2)

ارتفع صوت خطواته وحذاءه العسكري الثقيل، يطرق الأرض الرخامية لأروقة القصر الكبير بينما لهاثه يتصاعد تدريجيًا من فرط الجهد الذي بذله طوال اليوم في تأمين ساحة المدينة وتدعيم بواباتها الرئيسية، قبل أن يطلبه مولاه الملك (صدقيا) مما حدا به أن يترك كل ما يقوم به وينطلق إلى القصر على عجل، من داخله يتصاعد تساؤل كبير يكاد يحتل جُلّ رأسه ويحرق خلايا عقله التي عجزت عن تفسير مثل هذا الاستدعاء الغريب خاصة في هذا الوقت العصيب.

وصل إلى قاعة الحُكم الكبيرة وبعد أن فتح له حارسيها الباب على الفور، بدا له أن هذا الاستدعاء يحمل بين طياته أمرٌ جلل خاصةً بعد أن شاهد بعينيه الملك وهو يدور أمام عرشه جيئًا وذهابًا عاقدًا كفيه خلف ظهره، بينما التوتر ينهش قلبه ويطفر على ملامح وجهه التي انفرجت أساريرها حين نطق الوزير (يتسحاق):

- لقد وصل (إتاي) يا مولاي.

تطلع له الملك (صدقيا) بلهفة وهو يقترب منه، انتظره حتى انحنى في تبجيل واحترام قبل أن يبتدره متسائلًا:

- كيف حال دفاعاتنا يا (إتاي)؟

أجاب قائد الجند في محاولة لطمئنة مليكه:

- لقد قمنا بتكثيف الدفاعات خلف البوابات الرئيسية وكذلك قمنا بتأمين جميع الأسوار وتزويدها بالعتاد اللازم.

هز الملك (صدقيا) رأسه في يأس:

- كل هذا لن يجدي نفعًا.

حاول (إتاي) الاعتراض:

- ولكن يا مولاي نحن صددناهم لمدة عام ونصف كاملين، لم يستطيعوا خلاله اختراق دفاعاتنا الحصينة وسنردهم عنها مهما طال حصارهم لنا.

تنهد الملك:

- وماذا عن الناس داخل تلك الأسوار؟.. ماذا عن النساء والشيوخ والأطفال؟.. كيف سنوفر لهم الطعام والشراب وقد كادت المؤن أن تنفد منا؟

صمت (إتاي) هذه المرة ولم يعقّب فتابع الملك:

- مهما طالت مدة مقاومتنا فهذه المدينة ستسقط حتمًا.

ثم تحرك تجاه منضدة صغيرة ليتحسس بيده بعضًا من أوراق التناخ، كان يطالعها منذ قليل مكملًا في شرود:

- هذا مصيرها ومصيرنا منذ البداية.

تدخل الوزير (يتسحاق) في الحوار لأول مرة:

- ولكن بيدنا الآن إنقاذ ما يمكننا إنقاذه.

تطلع له الملك بعينان لا تريان، تغزوهما غشاوة من دمع أبى أن يتساقط، قبل أن يتمالك نفسه معقبًا:

- صدقت.

تحرك تجاه (إتاي) ووضع يديه على كتفيه:

- أنت أملنا الأخير يا (إتاي).

رد الأخير وقد استشعر خطورة ما سيطلب منه:

- أنا رهن إشارة مولاي.

رنّت الملك (صدقيا) على كتفه قبل أن يبدأ بالشرح:

- قد لا نستطيع إنقاذ المدينة لكن بإمكاننا إنقاذ ما هو أهم.. إنقاذ ما سيضمن مستقبل هذا الشعب والذي طالما بقى بعيدًا عن أيدي عدونا فسيتولّد لدينا الأمل لاستعادة ما فقدناه.

ظهرت الحيرة على وجه (إتاي) فقال الملك:

- حتى تفهم ما هو مطلوب منك عليك أن تأتي معي الآن.

قالها وتحرك مغادرًا قاعة العرش ومن خلفه (إتاي) والوزير (يتسحاق)، ساروا معًا عبر أروقة القصر حتى وصلوا إلى غرفة خاصة لا يدخلها إلا الملك وحده، فتح فيها هذا الأخير بابًا سريًا عبروه معًا إلى ممرات أخرى غير مأهولة، مضاءة بمشاعل زيتية صغيرة أوصلتهم إلى حيث فغر (إتاي)

فاه في ذهول.. كان أمامه وعلى بعد أمتار قليلة منه مبنى الهيكل الكبير.. قدس الأقداس..

تقدم الملك أولًا دون أن ينظر خلفه وتبعه الوزير (يتسحاق) الذي استحثه بتربيتة على كتفه قائلًا:

- هيا بنا.

تبعهما (إتاي) حائرًا في أمره حتى وصلوا إلى باب المعبد المذهّب الكبير دفعه الملك وخطا إلى الداخل ومعه الوزير، بينما وقف هو برهبة شديدة، قدماه قد جُمدتا في الأرض، التفت الملك إليه:

- تقدم يا (إتاي) ولا تخف.

قال بتردد:

- ولكن يا مولاي.. قدس الأقداس لا يدخله سوى الكاهن الأكبر في موعده المحدد كل عام، واللعنة تطال كل قدم أخرى تطأ أرض المعبد المقدّس.

أفسح الملك الطريق أمامه قائلًا:

- ليس في ظروفنا هذه.. فلا لعنة أشد مما نحن فيها والرب سيغفر وسيتفهم.

لم يجد (إتاي) بدًا من الامتثال لأوامر ملكه، تقدّم متهيّبًا حتى أصبحوا جميعًا داخل الحرم المقدّس الذي بدا من الداخل أكثر فخامة وبهاءً بجدارياته الضخمة والمشغولات الذهبية التي صُنعت بإتقان وإبداع فاق كل تصور، صفّت بفخر على الجدران وازدانت بها أركان قاعة الهيكل الكبيرة، بالإضافة إلى المصاطب الحجرية المنقوشة التي تحمل مباخر نحاسية غمرت المكان برائحة عطرية نفاذة، كانت كفيلة بأن تدغدغ

أعصابهم وتضفي أذهانهم وتسيغ عليهم بحالة من الهدوء والسكينة والسلام النفسي لولا جلال اللحظة وعِظم الخطب.

في منتصف القاعة وقف الكاهن الأكبر ينتظرهم بقامته الفارعة المهيبة ولحيته الكثة شديدة البياض وزيه المميز، وقف مستندًا إلى عصاه الغليظة المزدانة بالنقوش والمرصعة بالأحجار الكريمة بينما علامات الإرهاق والمرارة واليأس والإحباط تجتمع كلها لترسم صورة واضحة على ملامحه.. صورة عنوانها الهزيمة.

- هل حانت اللحظة؟

قالها الكاهن الأكبر للهيكل بأسى شديد فهز الملك (صدقيا) رأسه بأسى أشد وأجاب:

- نعم.. يبدو أنه لا مفر لدينا الآن سوى أن نحمي ما تبقى من تراثنا ولنقذ ما يمكن إنقاذه.

كادت الدموع تطفر من عيني الكاهن وهو يقول:

- كم يغمرني الأسى لأنني أشهد هذه اللحظة المريرة من تاريخ أمتنا.

حاول (صدقيا) التماسك والقيام بواجباته كملك وهو يقول بثبات:

- إنها ليست النهاية.. بل هي بداية لحقبة جديدة من تاريخ أمتنا ستعود فيها أقوى مما كانت.

بعثت كلماته الأمل في نفس الكاهن، نظر بطرف عينه تجاه (إتاي) متسائلًا:

- هل هو حامل المهمة؟

أومأ الملك (صدقيا) برأسه إيجابًا وهو يقول مؤكدًا:

- نعم.. وهو أهلٌ لها.

ظهر التردد والحيرة في أشد صورهما على ملامح (إتاي) قبل أن يجرؤ على التساؤل:

- معذرة يا مولاي ولكن.. عن أي مهمة تتحدثان؟

التفت له الملك ووضع يده على كتفه مجيبًا:

- الآن يحق لك أن تعرف كل ما تريد عن مهمتك.. مهمتك التي ستكون هي السبيل لكل ما نصبو إليه.

زادت ملامح الحيرة على وجهه إلى أن عاجله الملك بما أوضح له الأمور كلها حين قال:

- هناك فرقة صغيرة تنتظرك عند الجهة الجنوبية من المدينة.. سوف تصل إليهم عبر أحد الممرات السرية التي لا يعرفها سواي أنا والكاهن الأكبر للهيكل، مهمتكم هي إخراج التابوت المقدّس وإيصاله بأمان إلى وجهة سرية حيث تقوم بعدها وحدك بتنفيذ تعليمات صارمة طبقًا للإحداثيات والتوجيهات الموجودة بهذه الخريطة.

قالها وأخرج من ردائه خريطة مطوية، ناوله إياها بينما هذا الأخير يبدو كما لو أن صاعقة قد هبطت من السماء مباشرةً على رأسه، ظل يحدّق في مليكه للحظات غير مُصدّق لفداحة وخطورة مهمته ليقول الوزير (يتسحاق) في محاولة منه لدعوته للثبات بعد أن لاحظ نظراته الذاهلة:

- تجلّد أيها الشاب فمستقبل هذه الأمة بين يديك.

ابتلع (إتاي) غصة قاسية تجمعت في حلقه قبل أن يقول بصوت مبحوح:

- سوف أبذل قصارى جهدي.

رنت الملك (صدقيا) على كتفه وهو يتطلع إليه بإشفاق:

- هوّن عليك.. أعلم أن ما نطلبه منك شديد الأهمية والخطورة لكن كلي ثقة أن الرب العلي سيوفقك ويسدد خطاك.

تلاشت النظرة المتوترة من على وجه (إتاي) وحلّت محلها نظرة عزم وتصميم، تجلّت واضحة في كل حرف من حروف كلماته حين قال بحماس:

- أعدك يا مولاي أن أضحي بحياتي ذاتها في سبيل تنفيذ ما أمرتني به، فالحفاظ على سلامة تابوت الرب المقدّس أمرٌ إلهي واجب النفاذ حتى لو كان ثمنه أرواحنا جميعًا.

عاد الملك (صدقيا) يربّت على كتفه قائلًا:

- وفقك الله.

مرت أكثر من ساعة كاملة استغرقها (إتاي) ورجاله في نقل التابوت عبر الممر السري حتى وصل بسلام إلى القافلة التي كانت بالانتظار، بدأ التحرك بالفعل إلى الوجهة السرية، بينما الملك (صدقيا) ووزيره (يتسحاق) ومعهما الكاهن الأكبر يتابعونها بشغف وترقب، بداخل كلٍ منهم كانت تختلط الكثير من المشاعر المضطربة، قبل أن تتصاعد جلبة كبيرة أثارت انتباههم خاصةً مع قدوم أحد حراس الملك مهرولًا وعلامات الانزعاج والذعر تلقي بظلالها على وجهه. وصل إليهم فصاح وهو يلهث بعنف:

- لقد حلّت الكارثة يا مولاي.

صاح به (صدقيا):

- ماذا حدث؟

التقط الحارس أنفاسه بصعوبة قائلًا وهو يشير بيده تجاه الجانب الغربي من المدينة:

- البابليون اقتحموا البوابات الغربية واجتاحوا المدينة.

- رحماك يا إلهي.

رددها (يتسحاق) وعيناه تتسعان في ذعر شاركه في هذا الكاهن الأكبر، بينما عقدت الصدمة لسان الملك، فوقف يحدّق ببصره تجاه الغرب ذاهلًا حتى صاح الوزير (يتسحاق) وهو يستحثه على الإسراع قائلًا:

- ليس هناك وقت يا مولاي.. لا بد وأن تغادر المدينة على الفور.

التفت له الملك بانزعاج صارخًا:

- وأترك الرعية يدفعون الثمن وحدهم.. هل جننت؟!

صاح (يتسحاق):

- بل ما أقوله هو عين الصواب.. ليس الوقت وقت القرارات البطولية التي تؤخذ بانفعال دون روية بل وقت الحكمة والعقل.. وجودك سالمًا على قيد الحياة وبعيدًا عن الوقوع في أيديهم وملاقاة مصير الأسر هو السبيل الوحيد للاستمرار في المقاومة.

نظر له الملك بشك، فاستطرد قائلًا وهو يشير بيده تجاه قلب المدينة التي اندلعت وبدأت تتعالى منها الصرخات اليائسة المرتعبة:

- المدينة سقطت بالفعل ووجودك على رأس قائمة القتلى أو الأسرى لن

يفيد الرعية في شيء.. لكن نجاتك ومحاولة الوصول بأمان إلى ملك مصر سيحمله على تجريد جيش جرار يلاقي به (نبوخذ نصر) وجيشه، وقد يستعيد لنا المدينة مرة أخرى، خاصةً وهو سيستشيط غضبًا بعد أن يعلم بإبادة الحامية المصرية التي تحمي المدينة.

ظهر التردد جليًا في عيني الملك، فقال الكاهن مؤمنًا على كلام الوزير:

- الرأي ما قال (يتسحاق).

جز الملك على أسنانه بغضب مكبوت وهو يستشعر العجز والهوان بعد الهزيمة القاسية فحثه الوزير على الإسراع:

- هيا يا مولاي فلا وقت لدينا لإضاعته.

قالها (يتسحاق) وانطلقوا جميعًا لتنفيذ ما اتفقوا عليه ولم يمض الوقت الكثير حتى كانت قافلة الملك وأسرته تنطلق مبتعدة عبر البوابة الجنوبية المقابلة إلى بِركة سبلوام، في نفس اللحظة التي تقدَّم فيها موكب الملك المنتصر (نبوخذ نصر) يعبر بخيلاء عبر بوابات المدينة الأمامية ومعه قواده أجمعين، يتقدمهم (نبوزاردان) الذي نفش صدره وانتفخت أوداجه بفخرٍ شديد وهو يرى نظرات الملك الظافرة وهو يتطلع لكل ما حوله من دمار وخراب ورماد أسود جرَّاء ألسنة النيران التي ارتوت زهرتها الصفراء وهي تلتهم كل ما تطاله بجشع ونهم بينما أهل المدينة ما بين قتيل وجريح أو أسير قُيِّد بالأغلال بينما رأسه منكسة إلى الأرض في ذلٍ بيِّن.

برقت عينا الملك (نبوخذ نصر) في سعادة غامرة بعد أن شفى غليله وحقق نصره المنتظَر قبل أن يقترب منه (نبوزاردان) بجواده متسائلًا:

- أيرغب مولاي في الذهاب إلى قصر الحُكم؟

لم يُجب الملك سؤاله بل تساءل هو قائلًا:

- هل عثرتم على (صدقيا) وأفراد عائلته؟

ارتج على (نبوزاردان) خشية إثارة غضبة الملك لذا أجاب بحذر وبصوت خافت:

- ليس بعد يا مولاي.

نظر له الملك نظرة نارية فأكمل مسرعًا:

- لكننا نحاصر المدينة كلها وسنقلب كل حجر فيها ونبش كل شبر من الأرض حتى نأتي به مكبلًا أسفل قدميك.

تدخّل (آنور) في الحوار من موقعه بجوار الملك:

- لن ينجح في الهرب من بين أيدينا حتى لو حاول.

ثم نظر إلى (نبوخذ نصر) مكملًا:

- أرى أن نذهب إلى القصر الآن حتى...

- لا.

نطق بها الملك بصرامة مقاطعًا، فنظر له الجميع بدهشة قبل أن يتجرأ (نبوزاردان) على السؤال:

- إلى أين يريد مولاي الذهاب؟!

برقت عينا الملك بدرجة أشد وهو يقول بلهفة:

- الهيكل.

كانت كلمته قاطعة، فتوجه الركب بأكمله إلى حيث يقبع هيكل سليمان

المقدّس الذي بدا منتصبًا شامخًا وكأنه الشاهد الأخير على ما حاق بالمدينة من خراب ودمار، بينما في طريقهم كانوا ينظرون إلى الجنود البابليون وهم يسوقون طوابير المئات من الأسرى وسط نظرات الرجال المكلومة، المليئة بالخزي والعار، وعويل النساء السبايا وبكاء الأطفال الذين فقدوا الوطن والأمان مبكرًا، فراحوا يبكون رثاءً لحاضر جميل وخوفًا من مستقبل مجهول.

كان في استقبال الموكب عند وصوله لحرم الهيكل بعضًا من رجال (نبوزاردان) الثقات الذين ما أن شاهدوا الموكب يقترب حتى هرعوا في إستقباله منحنين لملكهم المنتصر في إجلالٍ بالغ، قابله الأخير بعدم اكتراث وعينه معلّقة على مبنى الهيكل الضخم وهو يهبط من على صهوة جواده، متقدمًا بخطوات ثابتة واثقة تمتلئ زهوًا وفخارًا إلى داخل بهو قاعة الهيكل، يتبعه قواده والحكيم (آنور) والجميع يحدّق بانبهار إلى التحف والمقتنيات الذهبية التي وُزعت بعناية بالغة ولمسة فنية رائعة في أرجاء وجنبات القاعة، قبل أن يلتفت الملك نحوهم صائحًا بدهشة:

- أين التابوت؟!

حدّق الجميع في بعضهم البعض ولم يحر أحدهم جوابًا، بينما بدا الارتباك واضحًا على رجال (نبوزاردان) خاصةً حين صاح فيهم هذا الأخير بغضب:

- أجيبوا سؤال مولاكم.

تقدم أحدهم مُجيبًا وهو يهرب بعينه بعيدًا عن الأعين المحدقة به قائلًا بصوت خفيض مضطرب:

- لم نعثر له على أثر يا مولاي.

تطايرت شرارات الغضب من عيني (نبوخذ نصر) وهو يصرخ بثورة

مستنكرًا:

- ماذا؟!

غمغم (آنور) بصوت خفيض:

- يبدو أنهم نجحوا في تهريبه قبل اقتحامنا المدينة.

زادت كلماته من حدّة غضب الملك وثورته فصرخ بكلمات تقطر حقدًا:

- ابحثوا عنه في كل مكان.. اعثروا عليه حتى لو اضطررتم لتسوية المدينة كلها بالأرض.

انطلق الرجال لتنفيذ أوامره وهُم في حقيقة الأمر يهربون بعيدًا عن غضبته الكاسحة، بينما تقدم هو من (آنور) الذي وقف يتطلع إليه بصمت:

- سيكون انتقامي منهم كما لو أن أبواب الجحيم قد فُتِحت وصبّت عليهم لعناتها.. انتقام سوف تخلده كتب التاريخ وتردده الأجيال القادمة برهبة لقرون من الزمان.

ثم رنا ببصره إلى خارج المعبد مستطردًا:

- سوف أحرق هيكلهم المقدس هذا حتى تتصاعد ألسنة اللهب إلى عنان السماء.. بعدها سأسوقهم كالنعاج بعيدًا عن مدينتهم التي سأدمرها عن آخرها حتى لا يبقى منها أثر وحين يستقر بهم المقام.. عبيدًا أذلاء في مملكتي.. سوف أستأصل شأفتهم وأقطع دابرهم حتى لا يتبقى من نسلهم أحد.

قال كلماته وعاد يطلق صرخاته الغاضبة من جديد..

يصرخ وقلب (آنور) يرتجف بين ضلوعه من مجرد تخيل مدى قسوته..

يصرخ وفضاء القاعة يردد صدى صرخاته الهادرة..

صرخاته التي كانت شاهدة على انتقام بقي محفوظًا في صدر التاريخ إلى الأبد.

*****

(3)

مدينة بابل.. عاصمة المملكة البابلية..

587 ق.م

بعد مرور قرابة شهر..

ازدانت شوارع المدينة العظيمة وطرقاتها بملامح البهجة والسرور، عُلّقت الزينات والورود في كل مكان وعلى واجهة المنازل والحوانيت، تزينت النساء بالملابس الجديدة والحلي، كما ارتدى الأطفال ملابس العيد وحملوا ألعابهم الخشبية وخرجوا إلى الطرقات والميادين مع ذويهم احتفالًا واحتفاءً باليوم الأول من اثني عشر يومًا هُم مدة الاحتفالات بعيد أكيتو. عيد بداية العام بالتقويم البابلي في الأول من نيسان من كل عام. كانت فرحتهم بمقدم العيد هذا العام مضاعفة بعد أن تكللت مجهوداتهم بالنصر، انتهت حربهم التي استمرت لأكثر من عام ونصف مع مملكة يهوذا المارقة، وعاد ملكهم العظيم وجيوشه وهُم يسوقون خلفهم الآلاف من العبيد والسبايا المنكسة رؤوسهم في ذلٍ وهوان، بعد أن كانت منذ فترة قصيرة ترتفع أمامهم في تحدٍ وعصيان.

واليوم تكتمل الفرحة بعد أن تواترت الأنباء عن أسر الملك الهارب (صدقيا) وعائلته وكيف سيخرج هذا الأخير أمامهم اليوم وهو مقيد بالأغلال، حيث

يساق كالبعير التي تساق إلى المذبح تكريمًا وقربانًا للإله مردوخ كبير الآلهة البابلية عند معبد إيساكيلا المدون أحد أشهر معالم المدينة الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من تسعون مترًا، حتى يكاد يشق عنان السماء والذي من فرط ضخامته وعلو ارتفاعه، أطلق عليه العبيد القادمين من أورشليم وهُم فاغري الأفواه متسعي الأعين ذهولًا حين رأوه.. برج بابل الكبير.

استمر الناس في احتفالاتهم، حتى حانت اللحظة المنتظرة حين ظهر من بداية الطريق المؤدي إلى معبد إيساكيلا موكب صغير يتقدمه عدد من الحراس المدججين بالسلاح، ومن خلفهم ظهرت العربة الخشبية الصغيرة التي تحمل على متنها الملك (صدقيا)، الذي بدا كما لو كان خارجًا لتوه من القبر، فظهر مُشعَث مُغبَر طويل الشعر واللحية بغير اعتناء أو تهذيب حتى ملابسه كانت مثال على الحالة السيئة التي وصل إليها، كانت متسخة بالية تقطعت عن بدنه في عدة مواضع، بينما هو ذاهل عن كل ما حوله ومَن حوله وهو جالس على ظهر العربة منكس الرأس وسط أغلاله الفولاذية القاسية.

حين اقتربت العربة من الجموع التي احتشدت.. تصاعدت صيحات الحماس والهتافات العدائية تجاه (صدقيا)، والحماسية تجاه الملك (نبوخذ نصر) والمملكة البابلية العظيمة، قبل أن يتجرأ أولهم على إلقاء حجر صغير تجاه الأسير دون اعتراض أو امتياء من الحراس المحيطين به، فبدوا كما لو كانوا مرحبين بالأمر بل ويباركونه كذلك، تشجع الآخرين على القيام بالمثل ورويدًا رويدًا تصاعد الحماس وتحول الأمر لمنافسة في دقة التصويب على الملك الأسير، انهالت الحصي الصغيرة وقطع الطين وحتى بقايا الطعام الفاسدة على رأس الملك وجسده، بينما هذا الأخير يقبع ساكنًا بعد أن فقد بصره والأصوات تخفت رويدًا رويدًا عن أذنيه. كانت الجماهير الغاضبة المنتشية ببهجة الانتصار في واد و(صدقيا) البائس في

وادٍ آخر لم يكن يشعر بأي شيء مما حوله بل لم يكن صياحهم وهرجهم يصل حتى إلى أذنيه التي صُمّت عن كل شيء وهو غارق حتى النخاع في ذكرى أيامٍ مضت..

يوم انفض ما بقى من رجاله عنه.. يوم هربوا فرارًا بأرواحهم وتركوه وأسرته وحدهم في سهول أريحا لقمةً سائغة لرجال (نبوخذ نصر) الذين أحكموا الخناق حوله وحاصروه بلا منفذ حتى سيق كالشاة إلى حصن البابليين في ربلة.. ذلك الحصن الذي يقع شمال أورشليم بمائتي ميل ليكون منصة انطلاق نحوها ونحو مدينة صور الصامدة أسوارها..

تذكر مهانته وإذلاله من قبل حين وُضع داخل قفص خشبي كالحيوانات يتلقى السباب واللعنات، حتى وصل الموكب إلى بوابة الحصن الكبير فحُمِل هذا الأخير إلى الداخل حتى اختفى عن أعين العامة.

في قلب الحصن وفي صدر قاعته الكبيرة جلس الملك (نبوخذ نصر) ينتظر بجانب عرشه كان يقف الحكيم (آنور) بلباسه المميز وعصاه الأثيرة، ومن حولهما وقف جميع قادة الجيش ورجال الحُكم في المملكة الذين تعلقت أبصارهم بـ(صدقيا) الذي أدخله الحرس إلى القاعة قبل أن يدوروا على أعقابهم خارجين، وقف وسط أغلاله التي تقيد يديه وقدميه بينما (نبوخذ نصر) الجالس بفخر على عرشه منتشيًا بنصره يتطلع إليه بتشف واضح، أعلن عن نفسه بكل صراحة عبر كلماته حين قال:

- انظر إلى حالك الآن أيها الخائن.. وأنت الذي ظننت أنك ستفلت من بين يدي!

رفع (صدقيا) عينيه ببطء ليناظر عينا الملك اللامعتان في سعادة دون أن ينبس ببنت شفة، فأكمل الأخير حديثه قائلًا:

- هل اعتقدت أنه كان بإمكانك خداعي حين أرسلت إلي رسلك الذين حاولوا تضليلي كي أرجئ اقتحامي لمدينتك؟

لم يتلق جوابًا فاتسعت ابتسامته الساخرة قائلًا:

- كنت تنتظر المدد المصري أليس كذلك؟!

مرة أخرى لم يُجب (صدقيا) بل بقيت عيناه اللتان التمعتا بدموع قهر احتبست بداخلهما مسلّطة على (نبوخذ نصر) الذي تحولت ابتسامته الساخرة إلى صرامة قاسية قائلًا:

- رسلك قطعت رؤوسهم وأرسلتها إليك على أسنة رماحي داخل مدينتك المحاصرة، لكنك كنت قد هربت بمنتهى الخِسّة كالفأر الجبان وتركت شعبك يلاقي مصيره وحده.

ظهرت علامات الألم على وجه (صدقيا) مما أثار نشوة الملك فقال بقسوة:

- كيف أعاقبك الآن أيها الخائن؟!!

تحركت شفتا (صدقيا) لأول مرة مجيبًا بصوت خافت واهن في لا مبالاة:

- افعل ما يحلو لك، فلم تعد لدي طاقة للحياة.

قال (نبوخذ نصر) بغضب:

- لو شئت أن أعاقبك على كل جرائمك في حقي وحق مملكتي لسلخت جلدك عن جسدك قبل أن ألقيك لذئاب البراري كي تنهشك حيًا.

لم يظهر تأثير الكلمات على وجه (صدقيا) وكأنه لم يعد يبالي بالفعل بأي شيء قد يحدث له، مما أثار ضيق الملك وغضبه الشديد فقال:

- لقد أعددت لك من صنوف العذاب ما يجعلك تشتهي الموت دون أن تناله

ثم افتر ثغره عن ابتسامة قاسية ارتسمت على ركن فمه وهو يكمل ببطء:

- لكن لدي شيء أفضل.

قالها وأشار لأحد رجاله صائحًا:

- أدخلوهم.

خرج الرجل لتنفيذ أوامره، ولم يمض من الوقت الكثير حتى عاد مرةً أخرى لكن ليس وحده هذه المرة، بل عاد وهو يقود من خلفه ثلاثة أطفال صغار وامرأة وهُم في حالة يرثى لها وقد قيّدت يد كلٍ منهم وبدا أن حالتهم ليست أفضل بحال من (صدقيا)، حيث ظهرت على ملامحهم آيات من الإرهاق والإعياء الشديد. ما أن وقعت عينا (صدقيا) عليهم حتى تحولت ملامحه من اللامبالاة إلى التوتر، بدا كما لو أن القلق ينهش روحه ذاتها حين عاد بنظره نحو (نبوخذ نصر) وهو ينتظر حديث هذا الأخير الذي لم يتأخر فقال:

- لنرى الآن إن كانت أرواح زوجتك وأطفالك رخيصة لديك كما روحك أم لا.

صاح (صدقيا) بجزع:

- ماذا تريد منهم؟!.. هُم ليسوا مسؤولين عن أيًا مما حدث.. أنا وحدي المسؤول.

قال (نبوخذ نصر) بمقت:

- بل هُم يدفعون ثمن تمردك وخيانتك أيها المارق.

ثم التفت إلى كاهن المعبد الأكبر الذي وقف في مقدمة صف من الكهنة الأصغر سنًا وقال:

- يبدو أن الإله الأعظم مردوخ سوف ينعم علينا بعام سعيد بعد أن نقدم له هذه المرة قرابين بشرية.

قالها وأعطى الإذن برأسه، فتقدم حارسين من أكبر أبناء (صدقيا) وحملاه عنوة وسط صرخات الهلع التي أطلقتها أمه، وبكاء إخوته الأطفال الذي يمزق نياط القلوب وأعين (صدقيا) الذاهلة، طرحاه على صخرة مستطيلة، اسودّ سطحها بدماء جفت منذ زمن صبغتها بلونها، تحرك الكهنة يتقدمهم كبيرهم وهُم يرتلون بعض العبارات المدغومة بصوتٍ خفيض، تحلقوا حول صخرة المذبح نفسها.. تلك الصخرة التي يقال طبقًا للمعتقدات البابلية أن الإله مردوخ قد اتكأ عليها حين هبط إلى الأرض ليلتقط أنفاسه بعد رحلته الطويلة الشاقة من السماء.

- لا.. لاااا!.

صرخ بها (صدقيا) في انهيار فأطلق (نبوخذ نصر) ضحكة شامتة قائلًا:

- أين ثباتك ولا مبالاتك الآن يا هذا؟!

ذرف (صدقيا) دموع القهر والمرارة بعد أن فشل في احتجازها داخل عينيه أكثر من ذلك وقال متوسلًا:

- الرحمة يا مولاي، الرحمة.. أتوسل إليك أن تعفو عنهم.. اقتلني أنا إن أردت فلا ذنب لهم فيما حدث.. الذنب ذنبي وحدي.

صاح (نبوخذ نصر) بصرامة:

- إذن، تقر بأنك أذنبت.

خفض (صدقيا) عينيه وقال بذل:

- نعم.. وعلى استعداد لدفع الثمن، لكن ارحم أطفالي.

تطلع له (نبوخذ نصر) للحظات في صمت ليختبر ثباتهمن جديد، التقط شهيقًا عميقًا وزفره على مهل، بينما القلق والتوتر يحرقان (صدقيا) بلا رحمة حتى قال الأول:

- رغم صعوبة طلبك على نفسي ووقوفه أمام رغبتي القاهرة في تحقيق انتقامي منك، لكن بإمكاني أن أعدك بالعفو عن أرواحهم على أن تموت أنت وحدك ميتة سريعة دون عذاب أو معاناة.

كاد لسان (صدقيا) يلهج بالشكر للملك الرحيم إلا أنه انعقد داخل فمه حين أكمل الأخير:

- لكن بشرط..

صاح (صدقيا) بلهفة:

- سأنفذ شرطك أيًا كان.

- أيًا كان!!

أومأ (صدقيا) برأسه في لهفة، فتريث (نبوخذ نصر) لبرهة قبل أن يعتدل في جلسته ويميل بجذعه إلى الأمام متسائلًا:

- أين التابوت؟

قال (صدقيا) مبهوتًا:

- ماذا؟!

قطب (نبوخذ نصر) جبينه وقال بغضب:

- قلت أنك ستنفذ هرطي أيًا كان.

طالت لحظات الصمت هذه المرة و(صدقيا) يُنقِّل عيناه بين طفله المقيد إلى صخرة المذبح و(نبوخذ نصر) الذي ظل يتطلع إليه بلهفة منتظرًا إجابة شافية لسؤال يؤرقه ويقض مضجعه، إلا أن (صدقيا) خيّب أمله حين هز رأسه ببطء يمينًا ويسارًا في أسى وهو يتمتم بخفوت وبصوتٍ كسير:

- لا أستطيع.

صرخت زوجته في هلع:

- ماذا تقول؟! هل جننت؟! أخبره بما يريد.. أرجوك انقذ طفلي.

سقط (صدقيا) على ركبتيه في انهيار وهو يخفض وجهه ويُغلق عينيه في ألم مردفًا:

- لا أستطيع.. لا أستطيع.

كان الأسى والألم يعتصران قلبه بمنتهى القسوة ويكادايزهقان روحه نفسها وهو يرى ابنه البكر يرقد بلا حول ولا قوة كالحمل الصغير على صخرة التضحية قربانًا لإله لا يعتنقه، بينما زوجته تصرخ بلا انقطاع وابنيه الأصغر سنًا يرتعدان خوفًا وهو في مكانه عاجز عن إنقاذهم بكلمة واحدة يلفظها من بين شفتيه.. كلمة واحدة قد تجعل الملك البابلي يحفظ حياة مَن يحبهم.. كلمة واحدة تساوي حياة زوجته وأطفاله.. لكنه لن يقولها.. لا يمكنه أن يكون أنانيًا إلى هذه الدرجة.. لن يضحي بأمل ومستقبل أمته كاملة في سبيل إنقاذ حياة أفراد حتى لو كانوا أطفاله.. مستحيل أن يُضحي بميراث أجداده ورمز أمجادهم وإيمانهم.. مستحيل.

طال الصمت أكثر وأكثر ولم تعد في نفس (نبوخذ نصر) أي قدرة على الصبر فتمتم بحقد:

- سنرى إن كنت ستبقى على عنادك حتى النهاية.

قالها وأشار لكبير الكهنة أن يبدأ الطقوس، فالتقط هذا الأخير سكينًا كبيرًا ذو مقبض من الفضة رفعه إلى شفتيه وتمتم ببعض قراءات خافتة، بينما بقية الكهنة يشعلون المزيد من البخور عطري الرائحة وينثرون قطرات الزيت على الجسد المسجى، رفع كبيرهم سكينه عاليًا وهو يمسك به بكلتا قبضتيه ويهوي به بمنتهى القوة على صدر الصبي الذي أطلق صرخة مريعة، صرخة جاوبتها صرخات (صدقيا) وزوجته التي رددتها جنبات القاعة الكبيرة بلا انقطاع.

أطلق (نبوخذ نصر) ضحكة مجلجلة تشفيًا عند سماع صرخات عدوه المنهارة، تبعتها ضحكات مفتعلة من بقية الحضور تملقًا، في حين انهمك الكهنة في إزاحة جثة الصبي من على صخرة المذبح، بينما الحرّاس يحملون الطفل الثاني الذي ظل يصرخ بلا توقف وهُم يضعونه مكان أخيه و(صدقيا) يصرخ في ثورة:

- اقتلني أنا أيها الحقير.

رد (نبوخذ نصر) بقسوة:

- الموت رحمة لن تنالها.

ظل (صدقيا) يصرخ بارتياع دون توقف:

- حقير.. حقير.

- سوف تخبرني بما أريد معرفته أو تشهد بعينيك موت جميع أطفالك.

قالها (نبوخذ نصر) بصرامة غاضبة فتقلصت ملامح (صدقيا) في ألم وهتف بمقت شديد:

- اللعنة عليك.. سوف ينتقم منك الرب العلي أشد انتقام.

ابتسم (نبوخذ نصر) قائلًا في استهزاء:

- الرب!

أجاب (صدقيا) والدموع تنهمر من عينيه كالأنهار دون أن يملك القدرة على كبحها:

- سوف يشهدك رعيتك ومريدينك وكل مَن يتملقونك الآن وأنت تحبو على أربع كالبعير وتأكل من خشاش الأرض، بينما روثك يغطيك حتى تنفر الكلاب من رائحتك.

تذكر انك حملت رواية تابوت العهد حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

أثارت كلماته جنون (نبوخذ نصر) إلى درجة لم يعد يجدي معها أي تعقل، فأشار لكهنته بغضب ليتكرر المشهد بحذافيره مع الطفلين الثاني والثالث متلما تم مع الطفل الأول، وكأن الزمن قد عاد دقائق إلى الوراء مطيلًا بلا رحمة أو شفقة عذاب (صدقيا) الذي شهد ابنيه الثاني والثالث وهُم يعانون نفس المعاناة التي لاقاها ابنه البكر من طقوس التحضير والتعاويذ والتراتيل الغامضة، وحتى لحظة سقوط سكين التضحية على صدريهما لتزهَق روحاهما البريئة الطاهرة دون ذنب اقترفوه في مشهد عبثي لا

مسبب له سوى رغبة عمياء في الانتقام.

كانت زوجة (صدقيا) قد فقدت الوعي بعد مقتل ابنها الأول من هول ما رأته، سقطت ممددة بجوار زوجها الذي بدا ذاهل النظرات كمجذوب فقد عقله وكأن القدر كان رحيمًا بها، فلم تشهد ما حاق بطفليها الآخرين ولا كلمات الملك الغاضب حين نهض عن عرشه واقترب من زوجها قائلًا:

- لن يضيرك الآن قتل زوجتك بعد أن عقدت لسانك عن إنقاذ أطفالك الثلاث، لكن اعلم أن هذه الساقطة لن تنال الموت بشرف كما تتمنى. بل سألقيها لجنودي وكل مَن له رغبة في مضاجعة ملكة مملكة يهوذا من رجال مملكتي كي يقضوا منها أوطارهم حتى تصبح مطيّة تأنف حتى الكلاب من الاقتراب منها، بعدها سأعلقها عارية أمام مدخل معبد الإلهة عشتار حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة بلا شرف أو كرامة.

ثم أمسك تلابيبه بكلتا قبضتيه بقوة قائلًا بسخط:

- أما أنت أيها الوغد فأمثالك لا يستحقون الموت.. بل العيش مكلّلًا بالعار الأبدي.

قالها وصرخ في (نبوزاردان) الذي اقترب منه في خطوات سريعة فقال:

- أريدك أن تقتلع عينا هذا الخائن وتحفظهما لي في وعاءٍ خاص ثم تلقيه في أقذر قبو، علّ الوحدة والظلمة والتفكر فيما حاق به وبآخر سلالة آل داوود يجعله يعدل عن رأيه ويخبرنا أين أخفى ذلك التابوت الملعون.

انطلق (نبوزاردان) لتنفيذ الأوامر بينما (نبوخذ نصر) يتابع جنوده وهُم يحملون (صدقيا) وزوجته إلى خارج المعبد وهو يمني نفسه بالعثور يومًا ما على التابوت، دون أن يدري أن هذا التابوت قُدّر له أن يبقى خفيًا عن الأعين لقرون وقرون من الزمان، وأن نبوءة (صدقيا) قُدّر لها أن تتحقق

ويلاقي عذابًا أشد مما صبه على رأس الأخير وأسرته..

استعاد (صدقيا) تلك الذكريات وهو يقبع في قبوه المظلم البارد لشهور، فاقدًا البصر بعد أن فُقأت عيناه يجتر مرارة أحزان تنوء بحملها الجبال.. يجتر مرارة كسرته بعد أن فقد الفلك والهيبة.. يجتر مرارة أن يرى بأم عينه تدمير مملكته وسبي رعيته.. ويجتر مرارة.. أن يرى نهاية سلالته بعد أن قُتل أطفاله الثلاث أمام عينيه. أي قسوة أن يكون آخر ما تراه عيناه هو مشهد أطفاله وهُم يُذبحون بدماء باردة وسط ضحكات التشفي من أعدائه!

لماذا تخلى عنه الرب ولم يرحمه من ويلات عذابه؟!

لماذا تجرع كأس الأتراح حتى الثمالة دون شفيع أو معين؟!

ما الذي أذنب فيه ليلاقي بكل هذا التجاهل؟!

ماذا كان بيده ليقدمه أكثر من ذلك؟!

ماذا بعد مُلكه وزوجته وأولاده بل وحياته نفسها؟!

أسئلة وراء أسئلة طرحتها روحه القلقة المعذّبة ولم يحصل لها على إجابة. لم يتبق له الآن سوى سواد الذكريات وأيام تعسة يقضيها وحيدًا متجرعًا كأس الذل والعار.. قبل أن يأتيه في خضم المعاناة وفي إحدى ليالي قضاها وسط همهمات الألم وأنات الحزن الدفين.. قبس من نور..

لحظتها شهق من فرط المفاجأة، وتلبسته حالة من السكينة غمرت قلبه، منحته طمأنينة أبدية رسمت على وجهه لأول مرة منذ شهور ولآخر مرة في حياته، ابتسامة راضية..

ابتسامة طُبعت للأبد على محياه بعد أن أسلم الروح في هدوء.

(4)

مدينة سايس.. عاصمة المملكة المصرية.

575 ق.م

تجمعت الحشود على جانبي الطريق الحجري الطويل المؤدي إلى معبد الإلهة نيت، أحد أكبر معابد العاصمة بأعمدته الضخمة المزدانة بالنقوش الفرعونية والرسوم الملونة، تحكي بكل فخر وتبجيل عن إلهة المدينة العظيمة، بالإضافة إلى تمثال الإلهة نفسها والذي نُصب بفخرٍ وشموخ أمام الدرجات الحجرية الصاعدة والمؤدية إلى داخل قاعة المعبد الكبير.

كانت الأجواء خارج المعبد صاخبة مضطربة وملامح الانقسام واضحة جلية على وجوه الجماهير في تناقض عجيب، منهم من بدت عليه السعادة وملأ قلبه الحبور فأعلنت الابتسامة عن نفسها وهي تحتل وجهه كله، بينما القِسم الآخر بدا حزينًا بقلب مثقل بالهموم والتعاسة تغزو وجهه بلا رحمة، في حين كان الشغل الشاغل للقِسم الثالث والمكون من بعض حراس المعبد بزيهم المميز مدعومين بفرقة كاملة من جيش الملك يحملون رماحهم بتحفز وهُم على صهوة خيولهم.. هو إنهاء المهمة الثقيلة التي كلفهم بها الملك على أكمل وجه، خاصةً وهُم يعلمون أيضًا مغبة احتمالات الفشل وما قد تسببه من فوضى عارمة، قد تضرب المملكة بأكملها وتودي بها إلى مصير الحرب الأهلية حيث تكمن النهاية.

استمر الجدال بين مؤيد ومعارض، وتصاعدت الهمهمات أكثر وأكثر خاصة حين طال وقوفهم دون أن يجِّد جديد والفرقة العسكرية تنتظر بنفس التحفز المتوتر وهُم على أهبة الاستعداد.. حتى بدت حركة قلقة عند باب المعبد تعلقت بها الأبصار وساد معها الهدوء حين خفتت الضجة والأحاديث الجانبية والكل ينتظر بلهفة وترقب. لم تمض سوى لحظات

حتى ظهر التابوت المذهّب يحمله أربعة رجال من الكهنة، وضعوه بحرص بالغ على عربة بدت ملكية من فرط الفخامة التي بدت عليها.. مجهزة بحصانين قويين أطلقا صهيلًا عاليًا حين تحرك الركب محاطًا بحراسة مُحكَمَة في موكب مبهر جذب أنظار جميع الحاضرين بلا استثناء.

بعد ذلك المشهد بوقتٍ قصير وفي مكانٍ آخر لا يبعُد كثيرًا عن مكان المعبد المقدّس وبالتحديد داخل قصر الحكم الكبير كان الوضع مختلفًا تمامًا، حيث سادت حالة من التوتر والترقب بدا أثرها على ملامح كبير كهنة المعبد.. أقرب رجال المملكة إلى قلب الملك، التي بدت مكفهرة إلى أقصى حد.. حتى الملك (واح إيب رع) نفسه لم يكن استثناء عن هذه القاعدة، بدا غارقًا في تفكير عميق وهو جالس على عرشه مضيّقًا عيناه بشرود، حتى دلف إلى القاعة في خطوات سريعة أحد قادة الجيش وقائد الحرس الملكي في لباسه العسكري فتعلقت به الأنظار وبدت اللهفة جلية في العيون، في حين لم ينتظر الملك كثيرًا وعاجله بسؤال متوتر قائلًا:

- كيف هو الحال أمام المعبد؟

أجاب القائد (نفر رع) وهو يقف منتصبًا بثبات:

- لقد تحرك الموكب بالفعل يا مولاي في طريقه إلى جزيرة الفنتين ومجموعة من حرس المعبد تساندهم فرقة كاملة من فرق الجيش يحرسانه حتى يصل إلى مقره الأخير.

تساءل الملك (واح إيب رع) بقلق:

- وماذا عن القافلة الأخرى؟

أجاب (نفر رع) على الفور:

- تحركت مرًا في نفس التوقيت يا مولاي وسط حراسة مشددة وجميع مَن فيها من رجالنا الثقات الذين على استعداد لبذل أرواحهم نفسها لو اقتضى الأمر في سبيل إنجاز المهمة، ولقد أقسموا جميعًا أمام سيدي كبير الكهنة على قسم السرية والكتمان.

تدخل كبير الكهنة في الحوار قائلًا:

- هذا ما حدث اليوم يا مولاي.. أرى أن الأمر قد انتهى بالفعل.

صاح الملك غاضبًا:

- لقد استهنا بالأمر منذ بدايته وها أنت ترى النتيجة وما وصل إليه حالنا.. انقسامات واضطرابات حتى كادت الثورة أن تضرب البلاد كلها وتُنذِر بطبول حرب أهلية طاحنة في فترة يتربص بها أعدائنا بنا، خاصةً بعد سقوط مملكة يهوذا والهيمنة البابلية في الشرق.

غمغم كبير الكهنة بحذر:

- عيونهم في كل مكان مترصد بالتأكيد خروج موكب التابوت اليوم.

رد الملك بتوتر:

- لنأمل ألا تكتشف تلك العيون أمر القافلة الأخرى حتى تطير الأخبار في طول البلاد وعرضها كما نبتغي.

قالها ودار ببصره في وجوه الحاضرين قبل أن يسأل قائلًا:

- أين القائد (أمازيس)؟. ألم يحضر بعد؟!

كان الملك يسأل عن رئيس الجيش الذي غاب بشكل ملحوظ عن مراسم خروج التابوت، فتبادل كبير الكهنة نظرات متوترة مع (نفر رع) قبل أن

يُجيب الأخير قائلًا:

- إنه في اجتماع خاص مع بعض قادة الجند اليونانيين والجند المصريين في محاولة لرأب الصدع بين الطرفين، وتقليل حدة النزاعات والانقسامات التي ازدادت بينهم في الفترة الأخيرة.

زفر الملك (واح إيب رع) في سخط قائلًا:

- وكأن هذا ما ينقصنا.. إن القلاقل والاضطرابات أصبحت تحاصر المملكة من كل جانب.

قال كبير الكهنة في محاولة لتخفيف توتر الملك:

- إن هي إلا بعض المشاكل العارضة التي ستزول قريبًاوتعود بركات الآلهة تظللنا من جديد.

لم يبد على ملامح الملك المتجهمة أن كلمات كبير الكهنة قد أحدثت أي تأثير يُذكَر في الوقت الذي فُتح فيه باب القاعة ودلف إليها رجل قوي البنية طويل القامة خطا باعتداد داخل زيه العسكري إلى حيث مجلس الملك وقال محييًا:

- السلام على مولاي الملك العظيم (واح إيب رع) ابن (بسماتيك الثاني).. سليل الآلهة وحامي حمى المملكة عاليها وأسفلها.

رفع الملك يده القابضة على الصولجان الذهبي رمز المُلك ردًا لتحية رئيس الجيش، في حين تساءل الأخير مستفسرًا:

- كيف كانت المراسم؟

أجابه القائد (نفر رع) قائلًا:

- لقد خرج الموكب بالفعل ومعه كل الترتيبات اللازمة.

ظهرت أمارات الارتياح على وجه (أمازيس) وهو يغمغم قائلًا:

- عظيم.

كاد (نفر رع) يهم بالحديث عن القافلة الأخرى إلا أن الملك قاطعه بسرعة وهو ينظر له نظرة خاصة قائلًا بحسم:

- دعنا من هذا الأمر الآن وأخبرني عن اجتماعك مع قادة الجند.

شعر (أمازيس) أن الملك يحاول أن يُخفي شيئًا ما إلا أنه تجاهل الأمر وأجاب وهو يتنهد قائلًا:

- لقد تطورت الأمور بالفعل حتى كادت أن تفلت من بين أيدينا.

تطلع له الملك باهتمام وتركيز شديدين فتابع قائلًا:

- إن حِدّة الخلافات بين فصائل الجيش، يونانيون ومصريون، تنذر بعواقب وخيمة إن طال أمدها دون تدخل من قبلنا، فالنفوس ممتلئة بالغضب وكل طرف من الطرفين يُضمر الشر للآخر والقادة في كل طرف يعملون على تأجيج هذه الخلافات وإشعال نار الثورة في النفوس من أجل مصالحهم الشخصية.

صاح الملك بغضب هادر:

- هذه خيانة.. أقسم أن أقتلع رؤوس هؤلاء الخونة من فوق رقابهم وأعلّقها على أبواب قصري هذا.

قال كبير الكهنة بحكمة:

- هدئ من روعك يا مولاي، فمثل تلك الأمور لا تُحل بالقوة الغاشمة بل

تحتاج إلى الدهاء والمكر حتى تصل إلى مأربك دون أن تتأثر أحوال البلاد.

نظر له الملك باستنكار قائلًا:

- أتقصد أن أخضع لشروط هؤلاء المارقين.

هز كبير الكهنة رأسه نفيًا وقال بسرعة:

- ليس هذا مقصدي يا مولاي، بل أن نتعامل مع الموقف بكل حنكة وخبرة ممكنة حتى نفوز بما نريد.. وهذا لن يتحقق سوى باللعب على كل الأطراف ومحاولة استمالة كل فصيل على حدا والسيطرة على عقول القادة في كل فصيل وإيهامهم أنهم هُم المنتصرون لو أتموا تحالفهم معنا، وبذلك يصبحون لقمةً سائغة لنا يأتمرون بأمرنا حتى نعيد ترتيب البيت من جديد.

قال (أمازيس) مؤمنًا على كلام كبير الكهنة قائلًا:

- أرى أن رأي سيدي كبير الكهنة هو الرأي الصواب في مثل هذه الظروف.

ثم استدرك وهو ينظر بتركيز إلى الملك:

- خاصة وهُم يظنون أن مولاي في الموقف الأضعف الآن.

أثارت كلماته المزيد من غضب الملك فقال في عناد:

- لقد أصبحت الظروف مواتية الآن بعد أن سقط رأس الأفعى وأيضًا خروج التابوت بهذا الشكل العلني.

قال كبير الكهنة بنبرة غريبة وهو ينظر نظرة ذات مغزى إلى (أمازيس):

- لقد سقط الرأس الكبير لكن هناك رؤوس أخرى بدأت ترتفع وتبرز من جحورها.

لم تفت نظرة كبير الكهنة عن أعين (أمازيس) ولا نبرته الغريبة التي

التقطتها أذناه الخبيرة، إلا أنه اكتفى بالصمت ولم يُعقِّب في حين لم ينتبه الملك إلى كل هذا وهو يقول بتقرير وبقلب مثقَل بالهموم:

- سنُعِد للأمر عُدته عندما يحين الوقت المناسب.

قالها وأشار لهم بالخروج، إلا أنه استبقى (نفر رع) الذي بقى صامتًا طوال فترة نقاش الملك مع رئيس الجيش وكبير الكهنة بإشارة من يده، انتظر حتى خرج الاثنان من القاعة ليقول متسائلًا:

- مَن غيرك يعلم بشأن وجهة قافلتنا السرية؟

أجاب (نفر رع) بصدق وهو يتساءل بداخله عن مغزى الملك من السؤال، لم ينس بعد تلك النظرة الغريبة التي رمقه بها حين سأل رئيس الجيش عن القافلة:

- لم أخبر أحد سوى سيدي كبير الكهنة حين أقسم أمامه الجنود قسم الولاء والكتمان قبل رحيلهم، كما أن السيد (أمازيس) كان منشغلًا بحل الخلافات بين قادة الفصائل فلم يتسن لي إخباره بعد.

غمغم الملك بخفوت:

- نعم كان منشغلًا بالخلافات.

ضيّق (نفر رع) عيناه في دهشة بالغة وبداخله تراكمت الأسئلة عن فحوى كلمات ونظرات الملك الغريبة، وما يحدث في الخفاء بينه وبين رئيس الجيش ذو النفوذ القوي بين الفصائل خاصّة فصائل المصريين الذين ضجوا بسيطرة الفصائل اليونانية على كل المواقع الحيوية في البلاد، وأيضًا من حظوة الملك لهم وتقريبهم منه بشكلٍ ملحوظ. دارت تلك الخواطر داخل رأسه لكنه بقى صامتًا ينتظر كلمات الأخير حتى تقطع

صمتًا طال أمده والذي اعتدل في مقعده قائلًا بحذر:

- أنصت إليّ جيدًا يا (نفر رع) واعلم أن ما سأقوله لك الآن أمر واجب النفاذ وسيبقى سرًا بيننا إلى الأبد.

قال (نفر رع) على الفور:

- أنا طوع بنان مولاي.

هز الملك رأسه في استحسان قبل أن يقول:

- حذار أن يعلم أحد آخر من داخل الجيش عن مكان وصول القافلة وتحديدًا (أمازيس).. هل تفهم؟

أومأ (نفر رع) برأسه إيجابًا وعيناه متسعتان في صدمة لاحظها الملك فقال مستدركًا:

- سننتظر حتى نرى ماذا يخبئ لنا المستقبل.

قال (نفر رع) في إخلاص:

- ولائي لمولاي لا يضاهيه سوى ولائي للآلهة نفسها.

ارتسمت ابتسامة راضية على وجه الملك (واح إيب رع) وهو يقول:

- بورك فيك يا (نفر رع).. بورك فيك.

قالها وأشار لقائده بالانصراف قبل أن يعود ليتفكر فيما تمر به البلاد من خطوب ويغرق مجددًا في تفكير عميق.

* * * * *

(5)

بخطوات بطيئة متثاقلة، عبر (نفر رع) الباب الخارجي لباحة منزله الكبير التي ازدانت بأحواض دائرية صغيرة، امتلأت بباقة منتقاه مختلفة الألوان من زهور اللوتس البيضاء والزرقاء وزهور العنبر والياسمين والغار الوردي، بالإضافة إلى الأصص الخزفية التي صُفّت بعناية بالغة ثم ارتقي ثلاث درجات حجرية صاعدة وهمّ بالدخول إلى منزله قبل أن يتوقف فجأة ويرفع رأسه إلى الأعلى ملقيًا ببصره على صفحة السماء التي غلفتها عباءة الليل السوداء الداكنة، بينما التمعت عليها ملايين النجوم التي بدت كفصوص جواهر مشرقة زُصع بها هذا الرداء الأسود البديع، ليحدّق بعدها في القرص الدائري للبدر الذي أرسل بلا تحفظ أشعته الفضية لتلقي بضوئها على الموجودات من حوله.

طاوعته نفسه على البقاء قليلًا بالخارج ليستمتع أكثر بهذا الهدوء والسحر الذي يفتقده على مدار اليوم، جلس على أريكة خشبية تظللها شجرة كروم بجوار باب المنزل، واسترخى بجسده مطلقًا تنهيدة حارة من بين شفتيه وعقله الذي ظل مشغولًا، تتنازعه الأفكار يسرح به بعيدًا عن كل هذا البهاء المحيط به إلى حيث ساعة واحدة مضت حين كان في قصر الملك وما دار أمام عينيه بين كبار رجال المملكة..

إن كل ما يراه من حوله بين العامة وفي أوساط الجيش وحتى داخل القصر الملكي يوحي بما لا يدع مجالًا للشك أن هذه البلاد مُقبلة على مرحلة من أصعب المراحل التي قد تمر في عمر الأمم، وفترة حالكة أخرى من فترات عمرها المديد. لم تكد الدولة تستفيق مما حاق بها خلال الأشهر الأخيرة وبعد أن ظن الجميع أن الأمور قد انتهت بخروج موكب التابوت اليوم بهذا الاحتفال المهيب أمام أعين العامة، حتى يتضح أن الثورة لا

تزال تضطرم في القلوب والأحقاد تحتل مكان الحب والإخاء في النفوس.

جال بخاطره جملة عارضة تفوه بها كبير الكهنة أمامه وأمام الملك ورئيس الجيش حين قال: "لقد سقط الرأس الكبير. لكن هناك رؤوس أخرى بدأت ترتفع وتبرز من جحورها".

توقف تفكيره لبرهة عند هذه الكلمة تحديدًا قبل أن يتحول ذهنه إلى آخر أمر أصدره له الملك، وقد اعتزم هو أمرًا يضمن به الحفاظ على السر من الضياع والوفاء بوعده لمولاه في نفس الوقت..

- منذ متى وأنت جالس هنا؟!

انتزعه السؤال من شروده فانتفض جسده لوهلة قبل أن يلتفت إلى زوجته التي وقفت بملابس النوم أمام باب المنزل وأمارات النعاس على وجهها وهي تتطلع إليه في دهشة حتى قال بهدوء:

- منذ برهة قصيرة.

تساءلت بقلق:

- ما بك؟

أجبر نفسه على الابتسام وقال مطمئنًا:

- لا شيء.. فقط أردت الجلوس قليلًا للاستمتاع بهذا المنظر البديع وملئ صدري ببعض من هواء الليل المنعش.

لم تقنعها كلماته فعادت تقول بقلق:

- تبدو مهمومًا بعض الشيء.

هز رأسه يمينًا ويسارًا وقال نافيًا:

- لا.. لا.. على الإطلاق.. إنني بخير حال فلا تقلقي.

تطلعت إليه للحظات غير مصدقة قبل أن تشير إلى داخل المنزل متسائلة:

- إذن هل ستبقى هنا لبعض الوقت أم ستأتي لتخلد إلى النوم؟

نهض من مكانه وخطا خلفها إلى داخل المنزل، توقفت هي حين لاحظت أنه لا يتبع خطواتها إلى غرفة النوم، فصاحت متسائلة بدهشة:

- إلى أين؟

أجاب دون أن ينظر إليها:

- سأخط بعض الكلمات قبل النوم.

هتفت بدهشة بالغة:

- الآن!!

لم يُجب هذه المرة بل دلف إلى غرفة أخرى من غرف المنزل بدت صغيرة بعض الشيء، تحتوي على عدد كبير من المخطوطات ولفائف البردي التي صُفّت بجوار بعضها البعض على أرفف خشبية، بينما في منتصفها وُضعت منضدة خشبية ومقعد مربع صغير، جلس عليه (نفر رع) ومد يده يلتقط لفافة بردي لم يُخَط عليها من قبل، تناول ريشته التي كانت مغموسة في محبرة صغيرة وانكفأ على كتابة سطور حصدت كل تركيزه، وتدريجيًا انغمس فيها بكل كيانه ولم يحسب حساب الوقت الذي طال دون أن يبرح مكانه، حتى شعر بيد حانية توضع على كتفه مع صوت خافت يقول متعجبًا:

- ألا زال النوم يجافيك؟!

رفع رأسه وفرد ظهره الذي أنّ في إرهاق واضح قبل أن يفرك عيناه في قوة وهو يجيب:

- بل سأخلد له بعد لحظات.

ثم رفع أمام عينيها المتسائلتين لفافة البردي التي امتلأت عن آخرها بسطوره مكملًا:

- فقد انتهيت الآن.

زوت ما بين حاجبيها متسائلة:

- ما هذا؟!

التفت إليها ونظر مليًا في عينيها قبل أن يقول:

- هذا هو أعظم سر امتلكه زوجك في يومٍ من الأيام.

بدأ القلق والتوتر يغزوان ملامح وجهها فابتسم ليهون عليها الأمر وقال موصيًا:

- هذا السر سيبقى حبيس صدري حتى يوم ألبي نداء الآلهة وعندها أوصيكِ أن تصحبني هذه اللفافة التي ستقسمين الآن أنكِ لن تُلقي عليها نظرة واحدة إلى مقبرتي.

بدت الزوجة مشدوهة من كلماته لكنها رغم ذلك نفذت طلبه منها وأقسمت القسم الذي أراده..

أقسمته دون أن تدري أن أول نظرة ستُلقى على هذه البردية سيحين موعدها بعد قرونٍ من الزمان.

* * * * *

(6)

قرية صالحجر- محافظة الغربية-

نوفمبر 2018م

بحذر شديد وبتركيزٍ أشد تعاون عدد من العمال المتمرسين ذوي الخبرة على إزاحة الجدار الحجري الذي يسد مدخل المقبرة الجديدة في الموقع الأثري، وذلك وسط تجمع كبير من رجال البحث الأثري وبقية عمال التنقيب الذين وقفوا بأعين محملقة، الجميع يحدوهم الأمل فيما يمكن أن يعثروا عليه جزاء هذا الاكتشاف المهم من مقتنيات أثرية ثمينة، ناهيك عن رفع الستار وكشف النقاب عن معلومات تاريخية غاية في الأهمية تخص فترة من أكثر فترات التاريخ المصري القديم غموضًا وإثارة للجدل.

في تلك الأثناء تقدم رجل قصير القامة ممتلئ الجسد زحفت سنوات عمره نحو الخمسين، يدًا بيد مع شعر رأسه الذي انحسر عن مقدمة رأسه تاركًا إياها جرداء، بينما لوحت الشمس بشرته فضربت بها السمرة عقابًا، من رجل آخر يماثله في العمر معتدل الجسد ثاقب النظرات تكلّل رأسه خصلات ناعمة من شعر اختلط سواده بياضه- بدا شديد الترقب حين أتاه صوت زميله وهو يقول متسائلًا بلهفة:

- أتظن أننا سنجد جائزة كبيرة يا (فاروق)؟!

غمغم الدكتور (فاروق زيدان) الباحث الأثري الكبير ومدير الموقع، دون أن ينظر إليه وعيناه تتابعان بمنتهى التركيز ما يدور أمامه:

- تحلى بالصبر يا (شوقي).. إن هي إلا لحظات وسنرى.

لم يصمت الباحث (شوقي الدريني) بعد أن فارقته فضيلة الصبر بلا

رجعة فقال بنفس النبرة المتلهفة:

- يكاد قلبي يتوقف عن الخفقان من فرط اللهفة لما سنجده بالداخل من كنوز ومقتنيات.

زوى (فاروق) ما بين حاجبيه في ضيق قائلًا:

- كديدنك دائمًا ما تسعى خلف المكاسب المادية.. الأهم هو قيمة الكشف نفسه، وما قد يضيفه إلى تاريخنا من معلومات سوف تضمن وضع إسمينا في صدر كل المجلات البحثية في العالم، وصورتينا في نشرات جميع وكالات الأنباء العالمية.

لم يُعَقِّب (شوقي) هذه المرة على كلماته، بل اكتفى بمتابعة ما يحدث أمامه وعيناه تلتمعان في جشع. بعد أن انتهى العمال من إزاحة الجدار الحجري الضخم، وبعد أن تمت تهوية المقبرة وتأمينها طبقًا للإجراءات المتبعة في مثل هذه الاكتشافات الأثرية.

تناول (فاروق) كشافًا ضوئيًا وتقدم إلى الداخل، يتبعه (شوقي) وخطيا معًا بحذر عبر ممر قصير ضيق نُقشت على جدرانه العديد من النقوش والرسومات الملونة، تنوعت ما بين عبارات التمجيد للآلهة والإشارات التحذيرية من مغبة الولوج إلى المقبرة لأي سبب من الأسباب وإزعاج صاحبها في رقدته الأخيرة، بينما على جانبي الممر تواجدت بعض الأواني الفخارية السليمة والمهشمة والأصص الخزفية التي ازدانت برسوم ملونة.

في نهاية الممر كان هناك جدار به فتحة مستطيلة طولية تسمح بمرور الرجل منحنيًا، بينما على قمته تواجدت عبارة تحذيرية أخيرة وقف (فاروق) يطالعها بعينه للحظة قبل أن ترتسم على جانب فمه ابتسامة خفيفة زالت سريعًا من على وجهه حين انحنى دالفًا إلى الداخل، كذلك حذا

حذوه (شوقي) الذي اتسعت عيناه انبهارًا حين سلط الأول كشافه الضوئي على جدران حجرة الدفن التي امتلأت عن آخرها برسومات ونقوش ملونة، بدت وكأنها نُقشت بالأمس فقط حيث حافظت على بهائها ورونقها فلم تطمسها الأيام، وكأن عجلة الزمن لم تدر عليها ولو لحظة واحدة. قبل أن يستقر بصر الاثنين على التابوت الذي وُضع في أحد أركان الحجرة ينتظر.

رغمًا عنه تمتم (شوقي) بأنفاس مبهورة:

- يا للروعة!

كانت السعادة تغمر (فاروق) هو الآخر إلا أنه قال بهدوء:

- نعم.. هي مقبرة لم تطالها يد اللصوص.

أدار (شوقي) كشافه الضوئي في أرجاء الحجرة:

- انظر إلى كل تلك المقتنيات والحلي الذهبية.

لم يعلق (فاروق) على جملته فاستطرد:

- القطعة من هذه تقدر قيمتها بملايين الدولارات.

مرة أخرى لم ينبس (فاروق) ببنت شفة فالتفت إليه (شوقي) بدهشة متسائلًا:

- فيم شرودك هذا؟!

أجاب (فاروق) وهو يحدّق في نقطةٍ ما أمامه بمنتهى التركيز:

- فيما لم يلفت نظرك ولو للحظة واحدة.

وجه (شوقي) بصره إلى حيث ينظر فوجد جرة كبيرة وُضعت بحرص

جوار التابوت امتلأت عن آخرها بلفائف البردي بينما (فاروق) يتابع:

- هذا هو الكنز الحقيقي.

قالها واقترب من التابوت جاثيًا على ركبتيه وواضعًا كشافه الضوئي بجواره، تحسس غطاء التابوت المغلق بلهفة قبل أن يلتفت لزميله قائلًا بلهجة آمرة:

- هيا اقترب وعاونني هنا.

أطاعه (شوقي) على الفور دون أن ينطق بكلمة واحدة، تعاون الاثنان على إزاحة غطاء التابوت الثقيل الذي بدا مستبسلًا للحظات قبل أن تلين عريكته وينزاح رويدًا رويدًا كاشفًا عن مومياء كاملة في حالة جيدة جرى تحنيطها طبقًا للعادات والتقاليد الفرعونية القديمة، فتم لفها بطبقات من الكتان غلفها بالكامل من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، بينما على جانبيها داخل التابوت وُضعت الجرار الكانوبية المقدسة التي اتخذت شكل أبناء حورس الأربعة، حُفِظت بداخلها أحشاء الميت كي تصحبه في رحلته الأخيرة نحو العالم الآخر وبجوارها قبعت جرة أخيرة حوت لفافة بردي واحدة بدت على قدر كبير من الأهمية تسمح بأن تُدفن بشكل منفصل عن باقي البرديات وبجوار الميت مباشرةً.

التقطها (فاروق) بحرص وبأطراف أصابعه فتحها وجرت عيناه على سطورها بسرعة قبل أن تتجمد ملامحه فجأة وتتسع عيناه في ذهول وهو يردد برهبة:

- التابوت.

جذبت كلمته انتباه (شوقي) الذي التفت إليه متسائلًا بدهشة:

- ماذا؟!.. عن أي تابوت تتحدث؟!!

تطلع إليه (فاروق) بصمت طال حتى خُيِّل ل(شوقي)أنه لم يستمع لسؤاله، إلا أن الأخير أجاب بعد برهة بملامح ذاهلة وعينان شاردتان:

- التابوت المفقود.

*****

(7)

القاهرة 2020م.

أجواء هادئة سادت أرجاء الشقة، كادت تقترب من الصمت التام لولا صوت دقات عقارب ساعة الحائط الرتيبة، وبعض الأصوات المختلطة الغير واضحة التي تتسرب عبر خصاص النافذة المغلقة. ظلام كئيب مُقبِض كاد يُصبح دامسًا لولا ذلك الضوء الخافت القادم من مصباح صغير خارج غرفة النوم. كانت عقارب الساعة تجري حثيثًا نحو الثامنة مساءً والتي أعلنت عن نفسها بكل وضوح، حين انطلق الصوت المميّز لساعة التنبيه بالهاتف الجوّال، يحمل إيقاعات متصاعدة صاخبة، تستجدي الغارق في عالم الأحلام أن يستمع لإرشادات عقله الواعي وينسحب سريعًا إلى أرض الواقع.

استجاب (يوسف) بعد برهة والتقط هاتفه الجوّال في تثاقل ليخرسه قبل أن يتمطى ويدفع نفسه دفعًا خارج الفراش مقاومًا خدر لذيذ، حاول أن يستميله لمعاودة النوم من جديد في محاولة أخيرة يائسة باءت بالفشل.

اعتدل جالسًا على طرف الفراش وهو يلتقط علبة سجائره مشعلًا سيجارة، نفث دخانها في ظلام الغرفة قبل أن ينهض مترنحًا إلى الحمّام، في طريقه

مر بصالة منزله الغارقة في الظلام، جذب أنظاره زر أحمر صغير يضيء وينطفئ بشكل مستمر دلالة على استقباله مكالمات فائتة على جهاز الفجيب الآلي أثناء استغراقه العميق في النوم، يتعمد (يوسف) دائمًا ضبط جهاز هاتفه الجوّال على خاصية رفض استقبال المكالمات إمعانًا في الحصول على نوم هادئ عميق بعيدًا عن أي إزعاج. ضغط الزر وتوجه إلى الحمّام وأذناه تلتقطان صوت شقيقته المرح وهي تسأل عن أحواله وتعاتبه على نسيانها وعدم اتصاله بها منذ فترة طويلة.

كان (يوسف) يسكن وحيدًا في شقة الأسرة بعد وفاة والده وسفر والدته لتقيم بشكل دائم مع شقيقته المتزوجة في دبي منذ سنوات.. كم من مرة حاولا معًا ثنيه عن قرار العيش بمفرده.. كم من مرة ألحا عليه للانتقال والاستقرار معهما في دبي لكنه كان يرفض باستماتة وإصرار.. حتى أنهما سعيا لتزويجه وانتقيا له عديد من الفتيات ليقابلا بسخريته الشديدة ورفضه القاطع في كل مرة. الحقيقة أن (يوسف) قد قرر صمّ أذنيه عن كل محاولاتهما وكأنه استمرأ الوضع الحالي وتأقلم على الحياة وحيدًا، بعيدًا عن الصخب والضوضاء والمسئوليات العائلية التي تستتبعها حتمًا مشكلات لا تنتهي.. ذئب متوحد ينأى عن القطيع.

استمرت المكالمة لعدة دقائق أخرى تغمرها عبارات الاطمئنان والشوق ومحاولة أخيرة بصوتٍ بين اليأس والرجاء علّها تصيب قبل أن تنتهي بعبارات وداع حارة، صمت بعدها الهاتف للحظات، دارت بعدها مكالمة أخرى التقطتها أذناه وهو يقف تحت شلال المياه المنهمرة في حوض الاستحمام، حملت له صوت أستاذه الدكتور (فاروق زيدان) الهادئ الوقور وهو يؤكد عليه موعد الليلة، ويحثه على القدوم في موعده خشية أن يتأخر فيفوته اللقاء من بدايته. لحظتها تذكر لقاءه مع الأستاذ هذا الصباح حين دعاه إلى مكتبه في مصلحة الآثار على غير عادة، وكيف وجه له

دعوة بصفة شخصية لمقابلة شخص على قدر كبير من الأهمية ذو مكانة علمية مرموقة، لقبه بالبروفيسور دون أن يُفصح ولو بحرف واحد عن سبب اللقاء أو ما سيتم مناقشته خلاله، أو حتى عن السبب في توجيه الدعوة إليه للحضور. كان الأستاذ (فاروق) هادئ الطباع صموت إلى أقصى حد، يُخفي دائمًا أكثر مما يُبدي، لم يكن باستطاعته حثه أو استمالته على البوح بفحوى شيء يرفض هو الإفصاح عنه.

دائمًا ما كان يردد مقولة الإمام علي بن أبي طالب رضي‌الله عنه حين قال: "ليس كل ما يُعرف يقال.. وليس كل ما يُقال آن أوانه.. وليس كل ما آن أوانه حضر أهله".

كان هذا منهج أستاذه وأسلوبه وصار منهجه هو الآخرفلم يحاول (يوسف) مجددًا ولم يعلّق بكلمة واحدة أخرى في هذا الأمر، سوى التأكيد على قبول الدعوة والوعد بالحضور في الموعد المحدد..

انتهى سريعًا من الاستحمام وارتدى ملابسه على عجل ثم هبط مسرعًا بخطوات مهرولة محييًا بواب عمارته، استوقف سيارة أجرة أقلته إلى شقة أستاذه في حي الهرم حيث مكان اللقاء، نقد السائق أجرته وخطا إلى داخل العقار مستقلًا المصعد صوب الطابق العاشر انتهز الفرصة في النظر عبر مرآته إلى هندامه قبل أن يخرج متجهًا إلى الشقة. أمام بابها وبعد أن رفع يده بحماس ليضغط جرس الباب، تجمد في مكانه وزوى ما بين حاجبيه وهو يقف متوجسًا يتطلع لما أمامه بريبة.. كانت علاقته الوطيدة بأستاذه تجعله يعلم عِلم اليقين تشكك هذا الأخير وحذره الشديد، كيف والحال هكذا يترك باب شقته بهذا الشكل.

كان المشهد بأكمله يدعو للشك والريبة.. بابٌ موارَب ومسكون وعقلٌ تنهشه الظنون كانوا بداية لهولٍ لم يشهد مثله من قبل.. لحظات مرت عليه بطيئة

قبل أن يتجرأ على دفع الباب ببطء وحذر، يحدثه قلبه ويكذبه عقله.. وهو بينهما حائرًا يصيح بصوت مضطرب:

- دكتور (فاروق)!

لم يتلق ردًا فكرر صيحته مرة ثانية وثالثة وفي كل مرة كان يجاوبه الصمت، وقر الشك في قلبه فخطا بقدمه إلى الداخل وعيناه تدوران حول محجريهما تقلبان أرجاء الشقة بلا كلل.. كل شيء في مكانه وبنفس الترتيب كما رأى الشقة آخر مرة، بينما الصمت يستبد برأيه ويفرض سطوته بقسوة على الأرجاء قبل أن تصيبه صاعقة شلّت كل ذرة في بدنه وقف على إثرها متجمدًا، حين وقعت عيناه فجأة على مشهد مفزع جعله يُشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى صارخًا، مال ليفرغ معدته التي ناءت بحِملها حتى كاد يلفظ معها أحشاءه، جسده ينتفض بعنف، أنفاسه تختنق وضربات قلبه الوجل تصرخ في جسد شلّته الصدمة..

أجبر بنيانه المتصدع على التحرك بعد فترة سكون طالت لمدة دقائق من الزمن.. دقائق مرت عليه دهور قبل أن يعود بأعين زائغة وأجفان مرتعشة ورؤية ضبابية ليرى ما عجز عقله عن إدراكه..

كان الدكتور (فاروق) أو لو شئت الدقة ما بقي منه، ملقى أمامه على أرضية ردهة الشقة وسط بركة واسعة من الدماء الحمراء القانية بملامح مشوهه، بُقِرَت بطنه وتدلت أحشاؤه خارجها في مشهد بشع عصي على النسيان، وعلامات الكي والحرق التي طُبِعَت بقسوة على أطرافه التي قُيدت بإحكام جنبًا إلى جنب مع فمه الذي حُرِم من إطلاق صرخات استغاثة أو استرحام بواسطة شريط لاصق أحاط به وأغلقه إلى الأبد، بينما عيناه مفتوحتان عن آخرهما جاحظتان بعد أن فقدتا إلى غير رجعة آخر بريق للحياة.

ارتفع وجيب قلبه حتى أصبح طرقٌ قاسي كطبول حرب تقرع بشدة على أذنيه، إلا أن هذا لم يمنعهما من التقاط صوت الخطوات الثقيلة الواثقة التي تهرول صاعدة درجات درج البناية والصوت يقترب ويتعالى تدريجيًا، قبل أن يُفتَح باب المصعد في نفس الوقت وفي تناسق تام تلاقى الفريقان واقتحمت الشقة قوة كاملة من رجال الشرطة، أشهروا السلاح في وجهه بمنتهى التحفز مع أمر مباشر بعدم التحرك والاستسلام.. أمر لم يلق منه أي اعتراض بعد أن جُمِّدت قدماه في الأرض كفَن أصيب بشلل تام. لحظتها علم أن أيامه المقبلة ستحمل له ما لم يخطر على عقله قط، أيام مظلمة وليال أسود من قلب كافر.. وأن ما شهده حتى الآن ليس سوى قطرة في بحر الأهوال القادمة.

*****

(8)

قسم شرطة الهرم.

بعد ثلاثة أيام..

غرفة صغيرة ذات طلاء أبيض متسخ تساقط معظمه، يضيئها مصباح أبيض كبير باهت، يلقي بضوئه الكئيب على المكان الفارغ، إلا من منضدة خشبية صغيرة وُضِع على جانبيها مقعدين خشبيين متقابلين، جلس على أحدهما (يوسف) بظهر منحني وأكتاف متهدلة.. رأسه منكسة وعيناه شاردتان تحدقان في الفراغ من حوله، يفرك كفيه في توتر أفصح عن نفسه بشكلٍ جلي حين انتفض فزعًا مع صوت الباب وهو يُفتَح ويدلف من خلاله رجل قوي البنية حاد القسمات معقود الحاجبين، تطلع إليه للحظة دون حديث ثم خلع معطفه وعلّقه بحرص على ظهر مقعده الذي أزاحه إلى الخلف قليلًا وجلس في مقابلة (يوسف)، تناول علبة سجائره والتقط منها

سيجارة أشعلها بقداحة ذهبية أنيقة قبل أن يمد يده بها نحو الأخير، مد يدًا مرتجفة يلتقط سيجارة هو الآخر أشعلها له ذلك الرجل الذي قال بهدوء مبتدرًا:

- مساء الخير يا (يوسف).

لم يعقب الأخير بل رفع عينًا زائغة نحوه فأكمل:

- ألن ترد التحية على الأقل!

خفض (يوسف) رأسه من جديد، فدار ببصره متفقدًا أرجاء المكان من حوله قائلًا:

- معذرة عن تواضع المكان، لكننا نعمل في ظل ظروف قاسية وبالإمكانات المتاحة كما تعلم.

قالها والتقط نفسًا من سيجارته قبل أن يُسلِّط عينه على (يوسف) وهو يقول:

- أنا المقدم (محمد هامل) مفتش مباحث الهرم وأظنك تعلم جيدًا سبب تواجدك هنا.

قال (يوسف) بتوتر:

- أنا لم أفعل شيئًا.

ابتسم المقدم (محمد) ساخرًا وأومأ برأسه:

- بالتأكيد.. وأنا أصدقك.

ثم انحنى إلى الأمام مرتكزًا بيديه على المنضدة واستدرك:

- لكن عليك أولًا أن تبرر سبب تواجدك في مسرح الجريمة حين تم إلقاء

القبض عليك متلبسًا.

صاح (يوسف) بذعر:

- متلبسًا بماذا؟.. قلت لك أنني لم أفعل شيئًا.

تنهد المقدم (محمد) في نفاد صبر قبل أن يقول:

- حسنًا.. قص عليّ ماذا حدث بالتفصيل.

مجّ (يوسف) نفسًا عميقًا من سيجارته وأطلق سحابة كثيفة من الدخان قبل أن يقول بتوتر لم يهدأ:

- لقد تواجدت بناءً على طلب الدكتور (فاروق)، حيث أنهطلبني في هذا الموعد لحضور مقابلة مع شخصية صنفها على أنها ذات قدر كبير من الأهمية.

تساءل المقدم (محمد) باهتمام:

- مَن هي هذه الشخصية؟

هز (يوسف) رأسه يمينًا ويسارًا في حيرة وهو يُجيب قائلًا:

- لست أدري، فقد رفض الدكتور (فاروق) رحمه الله الإفصاح عن أي معلومة تخص ضيفه هذا.

قال المقدم (محمد) بدهشة ساخرة:

- وأنت قبلت أن تحضر اجتماع مع شخصية مجهولة لا تعلم عنها شيئًا ولم تحاول حتى السؤال!

قال (يوسف) بحِدّة وقد استشعر السخرية في كلمات محدثه:

- لو كنت تعلم الدكتور (فاروق) مثلما أعرفه أنا لأيقنت أنك لن تحصل منه على معلومة لا يريدك هو طواعيةً واختيارًا أن تحصل عليها.

تساءل المقدم (محمد) بسرعة:

- وماذا حدث عند وصولك؟

قص عليه (يوسف) ما حدث معه تفصيلًا منذ وصل إلى البناية التي يقطنها الدكتور (فاروق) وحتى لحظة وصول رجال الشرطة وإلقاء القبض عليه وهو يستمع إليه بتركيز شديد مدققًا في كل تفصيلة ينطق بها وكل معلومة تخرج من فمه، حتى انتهى من روايته فهز المقدم (محمد) رأسه قائلًا:

- قصتك تبدو منطقية أيها الشاب وأنا لدي ميل لتصديقك، لكن للأسف كل الشواهد ضدك حتى لو لم ترتق لقرائن واضحة.

صاح (يوسف) بدهشة:

- معنى هذا أن أتحمل مسئولية جُرم لم أرتكبه وأدفع ثمن جريرة ليست لي!

ضيّق المقدم (محمد) ما بين عينيه مفكرًا لبرهة قبل أن يتساءل:

- قل لي هل لمحت أحدًا ما حين وصلت إلى مكان الحادث؟

هز (يوسف) رأسه نفيًا:

- كلا.. لقد كان المكان هادئًا تمامًا.

عاد المقدم (محمد) يتساءل:

- ألم يلفت نظرك أي شيء غريب؟ أي شيء ليس في موضعه المعتاد حتى

لو كان هذا الشيء صغيرًا لا يُذكَر؟

صاح (يوسف):

- لم أجد الوقت الكافي لذلك صدقني.. كانت جثة الأستاذ أول ما صدمني حين وصلت إلى مكان الحادث.

تنهّد المقدم (محمد) قائلًا في حيرة حقيقية:

- الغريب أن موقع الجريمة لا توجد به أي آثار عنف كمانعهد في مثل تلك الحالات، والتقرير المبدئي لرجال البحث الجنائي يؤكد أن باب الشقة فُتح بطريقة طبيعية دون آثار اقتحام.

تساءل (يوسف) بحذر:

- وماذا عن حارس العقار؟

لوّح المقدم (محمد) بيده مجيبًا:

- شهادته جاءت سلبية، لم يلحظ وفود رجال غرباء إلى العقار كما لم يتلق هو أو أي أحد من الجيران صرخات استغاثة صادرة من الشقة.

غمغم (يوسف) بأسى:

- معنى هذا أن الشواهد كلها ضدي أنا.

رد المقدم (محمد) بتقرير:

- للأسف.

- هذا مستحيل.. مستحيل.

حاول المقدم (محمد) تخفيف وقع الأمر فقال مهوِّنًا:

- نحن لازلنا في بداية التحقيقات وقد تظهر لنا قرائن جديدة تصب في مصلحتك أثناء سير القضية.

ثم تنهد مكملًا:

- فقط تحلى بالصبر.

ارتسمت ابتسامة بائسة على وجه (يوسف) وهو يقول:

- وهل لدي حيلة غيره.

قالها وإحساسه باليأس داخله يتصاعد حتى كاد يخنقه.

*****

(9)

داخل حجرة حجز صغيرة مظلمة، لا ينيرها سوى إضاءة خافتة تأتي متسللة عبر كوة صغيرة مربعة في باب الحجرة الحديدي، مدعمة بقضبان حديدية قاسية وكأنه طير ضئيل الحجم سيطير محلقًا عبرها نحو الحرية.. جلس (يوسف) وحيدًا على أرض الحجرة الباردة، بعد أن تم احتجازه بعيدًا عن باقي المحبوسين في زنزانة القسم الرئيسية، يجتر مرارة ساعات كابوسية مضت..

ساعات مرت كما لو أنها دهرٌ كامل، لاقى بها ما لم يخطرعلى عقله حتى في أبشع كوابيسه وخيالاته السوداء، ناء بها قلبه حتى كاد هذا الأخير يكفر عن عقيدته ويحنث بقسمه الذي يردده دومًا، ويعبر عنه في دقات متواصلة متلاحقة، فينفجر متخليًا عن صاحبه الذي انحدرت من عينه دمعة حزن قاسية شقت طريقها عبر وجنة ارتعشت ألمًا وهو يتذكر المشهد البشع الذي ظل ماثلًا أمامه كما لو كان صورة طُبعت إلى الأبد في ذاكرته..

مشهد أستاذه وهو ملقى على الأرض ككم مُهمَل جثةً هامدة، بينما أحشاؤه تتدلى خارج جسده في صورة عبثية لا تفارق مخيلته..

كيف انتهت حياة أستاذه الهادئة تلك النهاية الوحشية؟!

مَن يمكن أن يكون خلف هذه الجريمة البشعة؟! ولماذا يريد إلصاقها به هو بالتحديد؟!

أسئلة وراء أسئلة ظلت حائرة بلا إجابة واحدة شافية، لم تترك داخله سوى فيضٌ هائل من الدهشة رغم أنه اعتاد منذ زمن ليس بالقريب على ألا يندهش مهما رأى أو سمع..

ما الذي يدعو للدهشة في هذا العالم؟!

من أين تأتي الدهشة في عالم تحكمه الرتابة؟!

عالم أصبحت الحوادث الصاعقة به نوع من الملل..

لكن ما عاصره خلال ساعاته الأخيرة كان أقوى من أن يُصَدق أو يُحتمَل.. لا يمكنه أن يدفع ثمن جريمة لم يرتكبها..

إن كل الشواهد ضده، ولو استمر به الحال هكذا فسيجد نفسه قريبًا وقد أحاط بعنقه حبل المشنقة..

لم تمض سوى لحظات قضاها (يوسف) في تفكير أضناه حتى كلَّ عقله إلا وباب زنزانته الخاصة يُفتح على إثر مفاتيح دارت في رتاجه، طالعه من خلفه وجه أحد أمناء الشرطة قائلًا بصرامة:

- هيا انهض يا هذا.. سيتم نقلك إلى مكان آخر.

تساءل (يوسف) بقلق:

- إلى أين؟

أجاب أمين الشرطة بحِدّة ونفاد صبر:

- هذا ليس من شأنك.. هيا تحرك بسرعة.

نهض (يوسف) في تثاقل وتبع ذلك الأمين الذي بدا متوترًا بلا سبب واضح، يرنو ببصره حوله في قلق عبر ممرات كئيبة خاوية، حتى وصلا إلى غرفة خاصة فتح السطور الأخير بابها ودفع (يوسف) بغلظة إلى الداخل قائلًا:

- انتظر هنا.. ضابط التحقيقات سيأتي إليك بعد قليل.

بدهشة تساءل:

- تحقيق!.. في هذا الوقت؟!

أمين الشرطة ساخرًا:

- معذرة لإزعاج سيادتك، سوف ألفت نظرهم لاحترام مواعيدك مستقبلًا.

قالها وأغلق الباب من الخارج مرةً أخرى تاركًا (يوسف) وحيدًا يتطلع إلى محبسه الجديد..

كانت غرفة عادية تحتوي على مكتب صغير وصوان ذو واجهة زجاجية، صفّت بداخله عدد من الملفات بانتظام، وأريكة خشبية مريحة يقابلها مقعدين من نفس النوع، حتى بدت كما لو كانت استراحة أحد ما أكثر منها غرفة احتجاز، لكن أكثر ما أثار انتباهه هو نافذة صغيرة مغلقة غير مدعّمة بقضبان حديدية..

تلفّت حوله بحذر مرة أخيرة، دنا ببطء من تلك النافذة التي لم يزد ارتفاعها أو عرضها عن نصف متر، بدت له في هذه اللحظة بوابة للحياة

وسبيلًا للخلاص، الأمل الأخير في الفرار من كل ما هو فيه، داعبت يده مقبض خصاصها البارد، فتحها ببطء وحذر متطلعًا من الفرجة الصغيرة التي أحدثها إلى الخارج..

كانت الأجواء هادئة في هذا الوقت المتأخر من الليل، قلّت الحركة بشكل ملحوظ في محيط قسم شرطة الهرم، إلا من بعض أفراد الحراسة الساهرة، يزجون الوقت وفترة ورديتهم الليلية الطويلة بأحاديث سامرة وضحكات خفيفة ومجاذير يشعلونها الواحدة تلو الأخرى، ينفثون دخانها في الهواء بينما (يوسف) ثابت في مكانه يتابعهم بتركيز عن كثب وترقب، تجرأ على فتح النافذة التي تقع في الطابق الأول على ارتفاع أمتار قليلة عن الأرض، دفع نفسه إلى الخارج مرتكزًا بقدمه اليمنى على إفريز ضيق، انتظر حتى توازن جسده بالكامل على كلتا قدميه فبدأ يتحرك خطوة بخطوة جهة اليمين نحو الوجهة التي التقطتها عيناه منذ البداية..

ماسورة الصرف الملتصقة بالمبنى على مقربة منه..

تلاحقت أنفاسه من فرط التوتر خشية السقوط، أو أن يلحظه أحد الحراس فيفتضح أمره وتضيع جهود محاولته الخرقاء الجريئة سدى.. لكن خطواته توالت ووجهته اقتربت حتى لمستها يداه أولًا، تعلق بها جسده كله وبدأ رحلته الجديدة في الهبوط إلى الأرض، حتى دانت الأخيرة مسافة متر أو يزيد فحرر يداه وقفز ليهبط بقوة على قدميه.

كانت الأجواء باردة لكن المجهود الذي بذله وتوتره الشديد بثا داخله حرارة أفصحت عن نفسها على شكل قطرات عرق تجمعت بكثافة على جبينه.. مسح ما سال منها بكفه وعدّل من هندامه قبل أن يبدأ في المسير بمحاذاة السور نحو بوابة القسم الرئيسية.

كانت المسافة لا تتجاوز عشرة أمتار، لكنها بدت له طريق طويل عليه أن

يقطعه وهو يحسب حساب كل خطوة يخطوها، ضم ياقة معطفه محاولًا إخفاء أكبر قدر من ملامحه، تقدم رويدًا صوب البوابة حتى دانت اللحظة الفاصلة التي ارتفعت بها ضربات قلبه، حين مر من أمام جمع الحرّاس المحتشدون على البوابة يتسامرون إلى أن عبر بالفعل، تنفس الصعداء بصوت مسموع وهو يغلق عينيه للحظة بارتياح، ليصطدم كتفه بكتف أحد الأشخاص المارين إلى الداخل قبل أن يتسمر في مكانه على إثر هتاف صارم آمر جمّد الدماء في عروقه:

- إلى أين يا هذا؟!.. قف مكانك.

كان الهتاف في منتهى القسوة واللحظة صعبة مريرة بعد أن قطع كل هذا الشوط نحو الحرية، غارت الدماء من وجهه وشعر كما لو أن الهواء من حوله يطبق على ضلوعه يكاد يحطمها وهو يلتفت إلى الخلف في استسلام.

*****

(10)

غُبقت أرجاء الغرفة الفاخرة على اتساعها بطبقات كثيفة من دخان التبغ المحترق، ينفثه عدد من الرجال المتأنقين في سترائهم باهظة الثمن، يجلسون بتحفظ وعيونهم معلقة برجل واحد يبدو عليه سمات الزعامة، جلس شاردًا متفكرًا قبل أن يقطع تفكيره صوت يقول بعصبية بالغة:

- خطأ.. خطأ.. ما كان لابد أن يموت قبل أن يبلغنا بكل ما نريد معرفته.

صدرت تلك العبارة عن (شوقي الدريني) الذي أخذيفرك كفيه بتوتر منتظرًا إجابة الرجل، بدا لو أن الأخير لم يسمعه فعاد يقول بنفس العصبية:

- ما العمل الآن؟

رفع الرجل عينيه ببطء تجاهه قائلًا بهدوء مستفز:

- هدئ من روعك مستر (شوقي)، لم تخرج الأمور عن السيطرة بعد.

بدهشة عارمة اجتاحت ملامح (شوقي) جزّاء هدوء الرجل المميت تساءل قائلًا:

- ماذا؟!

ثم بغضب أكمل:

- لقد انتهت خطتنا إلى غير رجعة بسبب هذا التصرف الأرعن.

بنفس الهدوء المستفز قال الرجل:

- ليس بعد.

لوّح (شوقي) بسبّابته:

- لم يكن هذا اتفاقنا منذ البداية يا مستر (ألبرت).

حدّجه (ألبرت برنشلي) بنظرة نارية ثم قال بصرامة منذرة:

- أنا مَن يحدد كيف يكون اتفاقنا يا مستر (شوقي)، وأنا أيضًا مَن يرسم الخطوات التي نسير عليها خطوة بخطوة، طالما أنا المسئول الأول والأخير وأتحمل النتائج دائمًا.

صاح (شوقي) بغضب:

- وفي حالتنا هذه مَن يتحمل نتيجة هذا الخطأ؟ مَن يتحمل نتيجة فشل الخطة بأكملها؟

تساءل (ألبرت) بهدوء:

- مَن قال أنها فشلت؟!

تحوَّل غضب (هوقي) إلى دهشة وهو يقول:

- وهل هناك فشل أكثر من مقتل الدكتور (فاروق) دون أن نحصل منه على معلومة واحدة، أو حتى طرف خيط يقودنا إلى السر؟!

تطلع (ألبرت) إليه ووضع ساقًا فوق الأخرى وهو يُجيب:

- لو أنك استفدت ولو للحظة واحدة من الفترة الطويلة التي قضيتها مع دكتور (فاروق زيدان)، لتأكدت كما أنا متأكد الآن أن هذا الرجل ليس بالسهولة والبساطة التي تظنها، وأنه بالتأكيد ترك عدة خيوط وليس خيطًا واحدًا لشخص ما وفي مكانٍ ما.

ثم ضيّق ما بين عينيه متفكرًا وقال بشرود:

- لكن أين هو هذا المكان؟ ومَن هو هذا الشخص؟.. مَن؟

كانت الصيحة الصارمة طعنة نجلاء في قلب (يوسف)،فقد فجأة أمله الأخير بعد أن قاب قوسين أو أدنى من تحقيق النجاح في مسعاه، أسقط يديه بجانبه واستدار ببطء إلى الخلف حيث مصدر الصيحة، لكن دهشته فاقت كل حد حين لاحظ أنهم لا ينظرون إليه أو يعيرونه انتباهًا، بل وقع بصرهم وتركّز كل تفكيرهم على شخص آخر دلف في هذه اللحظة إلى داخل حرم القسم.. نفس الشخص الذي اصطدم به منذ لحظات. لحظتها تنفّس (يوسف) الصعداء، أطلق تنهيدة حارة بدّد معها مخاوفه وتوتره، واستدار مبتعدًا في خطوات سريعة تحوّلت إلى عدو، حتى ابتعد عن القسم قدر الإمكان فانعطف في أحد الطرق الجانبية وهو يتفكر في

خطوته القادمة وفي المكان الذي سيلجأ إليه، انتبه من غفلته على صوت صرير إطارات سيارة تصرخ نتيجة احتكاكها الحاد بالأرض، وصدمة شديدة الوطأة ألقته أرضًا وأصابته بآلام مبرحة في جانبه الأيسر في نفس الوقت التي توقفت فيه السيارة تمامًا على مقربة منه، وهبطت منها فتاة شابة في العشرينات من عمرها ممشوقة القد متوسطة القامة، ترتدي سروال أسود أسفله حذاء جلدي طويل العنق من نفس اللون، معهما قميص أبيض عليه سترة جلدية سوداء، بينما تركت شعرها الأسود القصير الذي يصل بالكاد إلى كتفيها حرًا تتطاير خصلاته مع هواء الليل الثائر.

ارتسمت على محياها أمارات الذعر والهلع نتيجة الحادث وما يمكن أن تكون اقترفته دون قصد، صاحت ما أن اقتربت من (يوسف) الملقى أرضًا:

- رباه.. ماذا فعلت؟ هل أنت بخير؟

تحامل (يوسف) على نفسه ليعتدل في رقدته، قال بألم لم ينجح كليًا في إخفائه:

- أنا بخير.

قالت بنبرة باكية معتذرة:

- أنا آسفة.. أنا في غاية الأسف.

حاول (يوسف) أن يبث الطمأنينة في قلبها ويهدئ من روعها بكلماته فقال:

- لا عليك إنه خطئي أنا.. لقد ظهرت أمامك بشكل مفاجئ.

تساءلت بقلق:

- هل أنت قادر على النهوض؟

أجاب على الفور:

- بالتأكيد.

قالها وحاول النهوض من رقدته، لكن ألم صاعق اجتاح جانبه الأيسر تأوه بشدة جعلتها تقول بجزع:

- يا إلهي.. أنت مصاب بشدة.

ثم مدت يدها إليه قائلة:

- دعني أساعدك.

استند على يدها الممدودة إليه حتى انتصب واقفًا أمامها وإن كان جذعه يميل جهة اليسار في محاولة يائسة لمحاصرة ألم يهاجمه بضراوة حتى كاد يشل حركته بشكل تام، قبل أن يتداعى إلى أذنه صوت جلبة عالية وصياح قادمين من جهة قسم الشرطة الذي تركه منذ دقائق.. يبدو أنهم قد اكتشفوا أمر هروبه وبدأوا في رحلة البحث عنه. لاحظت هي نظراته المعلّقة بالجهة الأخرى من الشارع، وبالصخب القادم من هناك فقالت متسائلة:

- أتريد أن أقلّك إلى مكان ما؟!

أجاب بسرعة وكأنه وجد طوق الخلاص:

- نعم إن أمكن.

عاونته على الوصول إلى سيارتها، تحركت بها على الفورمبتعدة عن المكان بأكمله، بينما ظل (يوسف) يتابعه بتوتر حتى غاب كليًا عن بصره،

اعتدل في جلسته ملتقطًا نفسًا عميقًا زفره بقوة وبصوت مسموع جعل الفتاة تدير وجهها نحوه للحظة، قبل أن تعيد بصرها مرة أخرى إلى الطريق.

كانت جلستهما قلقة مضطربة، والصمت شريكًا ثالثًا لهما يفرض حضوره بقوة وسط نظرات زائغة بأجفان مختلجة ألقته بها الفتاة ولاحظها (يوسف) عبر مرآة السيارة الأمامية، قبل أن تقطع هي هذا الصمت قائلة بتساؤل متردد:

- هل هؤلاء...

قاطع تساؤلها بإجابة حاسمة جعلت شفتاها ترتعشان:

- يبحثون عني.

لم تُعقِّب، بل لم تنبس ببنت شفة، هو أيضًا لم يحاول أن يستطرد في الحديث، لكنه وجد نفسه مضطرًا أن يقول كلمة واحدة، ما أن خرجت من بين شفتيه حتى شعر كما لو أن ثقل كالجبال انزاح عن صدره:

- أنا بريء.

لم تعقِّب من جديد على هذا الأمر بل أدارت دفة الحديث إلى منحى آخر حين سألته عن وجهته قائلة:

- إلى أين؟

ارتج عليه ولم يدر بما يُجيب، طال صمته ولم تسمع منه إجابة فأدارت وجهها ناحيته متسائلة بدهشة:

- أليس لديك مكان تذهب إليه؟

- بلى.

قالها بصوت يائس قبل أن يحاول الاعتدال في مجلسه‌لتند عنه آهة ألم جعلتها تقول على الفور:

- علينا أولًا أن نطمئن على إصابتك.

ثم صمتت للحظة قبل أن تستطرد قائلة:

- إنني أعرف مكانًا مناسبًا.

لم تمض سوى دقائق معدودة حتى وجدها تتوقف بالسيارة أمام بناية متهالكة، اغتصبها الزمن بقسوة، بدت عليها آثار القِدم.. هبطت مسرعة ودارت للناحية الأخرى تساعده على الخروج متألمًا وهي تقول:

- أخشى ما أخشاه أن يكون هناك نزيف داخلي أو ما شابه.

تطلع إلى واجهة البناية ثم ارتقيا معًا درجات سلم صغير وهو يتساءل:

- هل هناك عيادة طبية في هذا المكان؟

أجابت على الفور:

- نعم في الطابق الأول.. أنا طبيبة بالمناسبة وهذه عيادتي الخاصة.

كانا قد وصلا إلى الطابق الأول العلوي بالفعل، تركته يستند بصعوبة على الحائط وأخرجت من حقيبة يدها مفتاح صغير أولجته في الباب وأدارته، حين فُتح الباب كانت في استقبالهما رائحة مميزة لم تخطئها أنفه.. رائحة الزمن.. رائحة مكان مغلق منذ سنوات لم تخط إليه قدم بشر.

دلفت هي إلى الداخل ومدت يدها إلى مفتاح كهربي‌جوار الباب، ضغطت عليه لتضيء النور الذي انبعث من مصباح صغير في منتصف سقف الغرفة، بدا قديمًا وليس من تلك المصابيح الجديدة شديدة الإضاءة والموفرة

للطاقة كما يصرّون دائمًا في الإعلانات التليفزيونية..

خطا خلفها إلى الداخل ليفاجأ بغرفة صغيرة تحوي أثاثًا قديمًا متهالكًا، كسته طبقات من غبار عززت لديه هواجسه في أن هذا المكان يكاد يكون مهجورًا تمامًا، انتبه بعدها على صوتها الذي التقط فيه نوع من التوتر وهي تقول:

- لحظات وأعود إليك.

ألقت جملتها واختفت مسرعة في غرفة جانبية أخري، أغلقت عليها بابها بإحكام من الداخل، وقف مكانه للحظات لم يدر فيها ماذا يفعل، حتى غلبه ألمه فخطا ليجلس على أحد المقاعد وهو يدعو الله في سره ألا يكون عمره الافتراضي قد انتهى بالفعل ويسقط به فلم تعد لديه طاقة لسقطة أخرى..

دار بعينه في أرجاء الغرفة مجددًا، استقرت على مجموعة من الكتب والملفات، وُضعت بحرص على المنضدة الصغيرة بجانبه، تفحصها بنظرة سريعة غير مكترثة..

كانت جميع الكتب الموجودة عبارة عن مراجع طبية باللغة اللاتينية في مجال الجراحة وتحديدًا في مجال جراحات القلب، مد يده يلتقط أحد الملفات يقلّب في الأوراق التي يضمها بين دفتيه، إلا أن يده توقفت فجأة حين تجمدت عيناه على الغلاف، بعد أن استرعى انتباهه ما كُتِب بخط اليد عليه.. ما قرأه جعله يعتدل في مكانه، يده تقبض بقوة على الملف وعينه تعيد قراءة الاسم الذي خُط في منتصف الورقة بالضبط..

"دكتورة (سماح زيدان)".

ردد الاسم بدهشة:

- (سماح زيدان)!!

كان الاسم مألوفًا لديه خاصةً وهو قد سمعه عدة مرات من شفاه مَن رحل، لكن صاحبة الاسم ليست داخل مصر ولم تقع عيناه عليها قط، كيف تكون هي.. إلا أن حيرته لم تدم طويلًا حين صعقته كلمات صارمة أتت من خلفه:

- عيناك لم تخدعانك ولا ترهق عقلك المكدود بالتفكير.. أنا هي بالفعل.

استدار ليجد الفتاة التي تيقن الآن من شخصيتها تقففي مواجهته، في يدها مسدس صغير تقبض عليه بقوة وتصوب فوهته تجاهه، بينما جسدها ينتفض من فرط الغضب، والدموع تنساب من مقلتيها اللتان حملتا له أسمى آيات البغض والقسوة. نهض من مكانه بصعوبة حتى كادت ساقاه تخذلانه من فرط المفاجأة، رفع يده أمامها باستسلام وهو يقول بصوت ضعيف:

- لست بحاجة الآن لعقلي المكدود ليخبرني بما تحملينه لي من مشاعر وما يدور بخلدك من أفعال شائنة تظنين أني فعلتها، لكن أقسم بالله العظيم أني بريء من كل ما تظنين بي.

قالت (سماح) بمقت:

- وفر دفاعك البائس فلن تطيقه مسامعي، ولن يجدي نفعًا الآن بأي حال.

- كثيرًا ما حدثني والدك عنك وكيف كان يأمل بك الشيء الكثير، وبما ينتظرك من مستقبل مشرق بعد إنهاء دراستك بالخارج، ستضيعينه الآن بلحظة غضب.

قالها في محاولة يائسة لإثنائها عما تنوي الإقدام عليه فجاوبته بكلمات خرجت من بين شفتيها تقطر غضبًا وحقدًا:

- لقد ضاع المستقبل بالفعل جزاء فعلتك الحقيرة.. مات مع مَن قُتل على يديك.

رد بسرعة صائحًا:

- هذه الفعلة الحقيرة ليست صنيعة يدي، ولم يجل بخاطري يومًا أن تمتد يدي إلى أستاذي بأي سوء.. أنا ضحية مثلي مثل والدك بالضبط، وأنت الآن على أعتاب أن تصبحي الضحية الثالثة إذا ما أقدمتِ على ما تنوين فعله.

ثم التقط نفسًا مراوغًا احتواه بين ثنايا صدره وزفره مكملًا:

- إننا جميعًا ضحية مؤامرة قذرة لا أعلم حتى الآن مَن وراءها.

صمتت وطال صمتها حتى ظن بأنها بدأت أخيرًا في الاستماع إليه لولا أنها قالت بعد برهة:

- كان بإمكاني أن أتفكر في كلامك، بل كان بإمكاني حتى إجبار نفسي على تصديقك، لولا تفصيلة واحدة بسيطة.

تطلع إليها بدهشة ولسان حاله يستحثها على المواصلة فتابعت قائلة:

- أنك لم تحسن إخفاء نواياك المريضة، فسبقت يدك الآثمة إلى عقل وقلب الرجل الذي قتلته.

لم يستطع عقله تفسير قولها فغمغم بدهشة أشد:

- إنني لا أفهم عن أي شيء تتحدثين.

استطردت قائلة:

- لقد تلقيت رسالة من والدي قبل مقتله، رسالة قصيرة لكنها واضحة وضوح الشمس.

تساءل بدهشة:

- أي رسالة؟

- رسالة كشف لي فيها النقاب عن قاتله أو بمعنى أدق مَن ينتوي قتله.

هتف ذاهلًا:

- غير معقول.

أكملت دون أن تلتفت إلى هتافه وهي تعيد تصويب المسدس تجاهه:

- لقد أخبرني والدي بنيتك في قتله.

* * * * *

(11)

مدينة منف.. المملكة المصرية.

575 ق.م

ألقى قرص الشمس وهو يُوشك على المغيب والانزواء خلف كثبان الرمال الصفراء، ضوؤه الأحمر القاني على الجدران الحجرية للمعبد الكبير بمدينة منف، أحد أهم مدن المملكة المصرية. كان المعبد الذي يقع على أطراف المدينة يغلّفه الصمت على الدوام، لا يقصده الزوار والعامة من أصحاب الحاجات وراغبي تقديم النذور تقربًا إلى الآلهة، بل اقتصر على النسّاك والكهنة الذين ارتأوا أن المكوث في هذا المكان المنعزل أفضل لهم خلال رحلتهم الروحية.

منذ مشرق الشمس إلى مغربها لا يشق جدار الصمت سوى صوت صفير الرياح الثائرة والرمال التي تحملها معها أينما هاجت.. صمت لم يقطعه

سوى صوت بدأ خافتًا ثم تصاعد تدريجيًا في وتيرة ثابتة، بعدما ظهر في الصورة ذلك الجواد القوي، حين لاح في الأفق وهو يصهل ويزفر الهواء من منخريه، قوائمه تضرب الأرض بقوة فتطوي المسافة وتُثير المزيد من رمال الصحراء، بينما مَن يمتطيه يقوده بسرعة ومهارة صوب المعبد.

هبط الفارس من فوق جواده وتركه بجوار جدار المعبد، تلفّت حوله في كل اتجاه كي يتأكد تمامًا أن لا أحد يتبعه، ثم خطا عبر البوابة الرئيسية إلى الداخل.. عَبَر المساحة الكبيرة بخطوات سريعة، ارتقى درجات السلم الحجرية ثم دفع بكلتا قبضتيه بوابة خشبية ضخمة أطلقت صريرًا عاليًا إثر فتحها، ليطالعه وجه أحد الكهنة المتدربين بثوب الكهنوت الكتاني الأبيض والرأس الحليقة، تعلو وجه شاحب من جرّاء قِلة تناول الطعام في تلك الفترة من التدريب الروحي والذهني.. ذلك الكاهن الذي رسم بسمة ترحاب على وجهه وهو يقول:

- مرحبًا بالقائد (أمازيس)، مر وقتٌ طويل منذ أن شرفتنا بحضورك.

قال (أمازيس) في عجالة وعيناه ترنوان خلف كتف الكاهن حيث قاعة مغلقة:

- أحضر حين تدعو الحاجة لحضوري بصفة شخصية.

ثم تساءل:

- ماذا عن الكاهن الأكبر؟ هل هو في خلوته؟

أومأ الكاهن برأسه وهو يقول:

- بالفعل.. لقد بدأ سيدي الكاهن الأكبر خلوته المقدسة منذ يومين لكنه أصدر أوامره أنك الوحيد المسموح له بقطع هذه الخلوة.

ثم تنحى جانبًا مفسحًا الطريق وهو يُشير بيده نحو القاعة المغلقة:

- تقدم سيد (أمازيس) ولا تدعه ينتظر هو بالتأكيد قد تنبأ بحضورك.

رُسمت علامات الدهشة على وجه (أمازيس) من جزاء كلمات الكاهن، لكنه لم يُضع ثانية أخرى وتقدم بخطى ثابتة إلى حيث الباب المزخرف للقاعة المقدّسة.. تلك الزخارف التي تثير الرهبة في نفسه كلما وقعت عيناه عليها.. أفعى ضخمة تلتف حول صولجان من الذهب، تفتح فكيها لتقبض بهما على قمته..

ما أن خطى إلى الداخل حتى استقبلته الرائحة الزكية المنبعثة من زيوت عطرية وُضعت داخل مشالٍ وُزعت في أركان القاعة الصغيرة، تنشّم عبقها بعمق حتى ملأ به صدره ثم زفره ببطء وتقدم بضع خطوات جعلته في مواجهة كاهن ضخم الجثة، متين البنيان، أولاه ظهره وقد جلس القرفصاء على الأرض في مواجهة لوح حجري، اصطفت فوقه العديد من أوراق البردي استغرق فيها بكل تركيز.. ذلك التركيز الذي لم يمنعه من أن يُدير رأسه قليلًا إلى اليمين وهو يقول:

- لا زال الأمر يسوء يا (أمازيس).

تنحنح القائد (أمازيس) قبل أن يبدأ الحديث قائلًا:

- لا يسوء فحسب، بل أصبح على قدرٍ كبير من الخطورة.

نهض الكاهن (ددف رع) بخفة رغم جسده الضخم والتفت إليه وقد ارتسمت ابتسامة خفيفة على ركن فمه وهو يقول:

- عظيم.. لقد ساعدنا ذلك الأحمق كثيرًا دون أن يدري.

قال (أمازيس) بقلق:

- لكن الأمر جد خطير ويهدد البلاد كلها بما لا تُحمَد عقباه.

- هذا سبب أدعى لأن نبدأ تحركنا على الفور.

صعقت الكلمات (أمازيس)، اتسعت عيناه في ارتياع وهو يهتف:

- الآن!!

أومأ (ددف رع) برأسه ببطء وهو يُحدِّق بقوة في عينيه:

- نعم.. إما الآن أو ينتهي كل شيء.

هز (أمازيس) رأسه يمينًا ويسارًا في رفض وقد هاله تصور الأمر قبل أن يقول:

- لن يكون الأمر سهلًا أبدًا، بل سيؤدي بالبلاد إلى حرب أهلية طاحنة ستمزقها شر ممزق، وتُلقي بها لقمةً سائغة في يد أعدائنا.

ثم نظر هو الآخر في عين الكاهن بقوة مكملًا:

- وأنت تعلم مَن أقصد.

وضع (ددف رع) راحته على كتف (أمازيس)، ضغط عليه بقوة وهو يقول بصبرٍ وهدوء:

- انصت إليّ جيدًا يا (أمازيس).. إن لم نُحسن التصرف ونستعد جيدًا ونضرب ضربتنا في الوقت المناسب، سيضيع كل شيء ونخسر جهود وتخطيط سنوات.

هذا هو القول الفصل.. علينا اختيار الوقت المناسب للتنفيذ وإلا سنخسر كل ما بذلناه من جهود طوال الفترة الماضية ومعها سنخسر أرواحنا كذلك، وأنا لن أخاطر بحياة جنودي في معركة غير مأمونة العواقب، وأيضًا لن

ألقي ببلادي فريسةً سهلة بين أنياب أسد الشرق الذي يتوارى خلف الحدود مراقبًا.

ابتعد (ددف رع) وهو يصيح بغضب:

- وهل حال البلاد الآن لا يجعلنا لقمةً سائغة لأعدائنا؟! هل هذه هي الدولة القوية مترامية الأطراف التي توارثناها جيلًا بعد جيل؟! أنظر حولك في كل موضع يا (أمازيس) وستجد الفساد والفقر أينما رنوت ببصرك، لقد أصاب هذه البلاد الوهن وتفككت أوصالها بعد أن فاحت بها رائحة العطن.. عطن الفساد الذي استشرى في باطنها حتى نخر عظامها.. هذا مع ضعف الحكام واحدًا تلو الآخر دون قدرة على السيطرة على مقاليد الأمور.. إننا ننتهي يا (أمازيس) ولن تقم لنا قائمة مرةً أخرى إن جَبُن أمثالك عن اتخاذ القرار الصعب في الدفاع عن كل مقدساتنا التي هارفت على الفناء.

- أعترف أن كل حرف تفوّهت به صحيح، لكن هذا لن يدفعني لاتخاذ خطوة عشوائية تحركها مشاعر الغضب والثورة.. إنها أرواح العديد من الرجال الثقات المخلصين للبلاد تلك التي نخاطر بها، وأنا لست على استعداد لخسارة روح واحدة نتيجة خطوة غير محسوبة.

قالها واستدار يهم بالمغادرة ليأتيه صوت (ددف رع) وهو يقول بصرامة:

- وماذا عن روحك أنت أيها القائد؟!

توقف (أمازيس) عن الحراك بغتة، دوت الكلمات في رأسه بعنف فعاد مرةً أخرى ليواجه الكاهن قائلًا بغضب:

- هل أعتبر هذا تهديدًا سيدي الكاهن؟!

رفع (ددف رع) حاجبيه في دهشة مصطنعة وهو يقول:

- تهديدا مني أنا؟!

ثم لانت ملامحه وارتسمت ابتسامة خبيثة على محياه وهو يقول:

- أنا أحرص الناس على حياتك يا (أمازيس).

زوى (أمازيس) ما بين حاجبيه وقال بصرامة:

- إذن ما معنى حديثك حول روحي؟ أفصح عما بداخلك أو دعني لشأني.

قال (ددف رع) والابتسامة لم تبرح وجهه:

- معناه أن هناك مَن يستريب في أمرك، ويحيك خيوط الشك حول كل خطوة تخطوها، ولا أدري كم تبقى من الوقت حتى يُفصح عما يدور بداخله إلى الملك.

شعر (أمازيس) بغصّة في حلقه فقال بصوتٍ متحشرج:

- مَن هو هذا الشخص؟

- كبير الكهنة.. الأقرب إلى قلب سليل الآلهة.

تصاعدت أنفاس (أمازيس) برهبة فانطلقت ضحكة مجلجلة في نفس الكاهن وقد شعر بدنو نصره بعد أن لمس وترًا حساسًا في نفس القائد العنيد.. ما أصعب إحساس أن تكون مطاردًا!

ما أصعب أن تُصبح حياتك نفسها على المحك بعد أن كنت تصبو إلى الفوز بكل شيء، بعد أن أصبحت قطوف نصرك دانية تتبختر كل أحلامك ولا يتبقى لك سوى سراب وحقيقة واحدة تتأجج كنيران المعبد المقدّس.. أنك تخسر كل شيء..

اضطرمت نيران القلق في قلب (أمازيس)، شعر برعب لم يعرف له طريق

من قبل يتسلل رويدًا رويدًا إلى قلبه، وهو يتخيَّل رد الفعل العاتي للملك وحاشيته من المرتزقة اليونانيين الذين دانت لهم البلاد بطولها وعرضها، أصبحوا يسيطرون ويستحوذون على كل المناصب.. لن يكتفوا بصب اللعنات عليه بالتأكيد، سينهشون جسده حيًا.. سيكون انتقامهم منه مضرب الأمثال على مر التاريخ.

- كل ما تفكر به صحيح.

قالها (ددف رع) بثقة فارتفع حاجبا (أمازيس) بدهشة وهو يتساءل:

- كيف عرفت ما يدور داخل عقلي؟

- أنبأني به قلبك الذي يرتجف بين ضلوعك.

ثم زالت الابتسامة من على وجهه وهو يقول بحِدَّة:

- يبدو أنك نسيت مع مَن تتعامل أيها القائد.

قال (أمازيس) في مداهنة:

- فلتلعنني الآلهة إن كنت أهكك في قدراتك ولو للحظةٍ واحدة سيدي الكاهن.. لقد تبعتك منذ البداية إيمانًا مني بعدالة القضية التي ندافع عنها وللخلاص من حالة الضعف هذه التي وصلنا إليها، لكن خلافي حول التوقيت الأنسب للتنفيذ كي نتلافى أي أخطار لسنا بحاجة إليها.

قال (ددف رع) بصرامة وقد استشعر قوة موقفه:

- الآن هو الوقت المناسب يا (أمازيس).. إما نحن أو هُم.. لا يوجد بديلٌ آخر.

قال (أمازيس) وهو ينهد باستسلام:

- إذن فلتكن مشيئة الآلهة.

اتسعت ابتسامة (ددف رع) وهو يقول بارتياح:

- الآن نحن على الدرب الصحيح.

قالها وطوّق كتفي (أمازيس) بذراعيه في سعادة، بينما الأخير يرسم ابتسامة باهتة على وجهه، وذهنه شارد في وادٍ آخر.

*****

(12)

لن يستطيع أحد أيًا مَن كان ومهما كانت درجة بلاغته، أن يصف بكلمات حالة المفاجأة الصاعقة التي أصابت (يوسف) في هذه اللحظة و(سماح) تنطق عبارتها الأخيرة، حتى أنه تناسى المسدس المصوب تجاهه وتمتم بذهول:

- مستحيل.

قالت (سماح) بتشفي:

- أرأيت أنه لا فائدة ترجى من دفاعك الواهي.

قال (يوسف) شاردًا وهو لايزال غير مُصَدِق ما سمعته أذناه:

- لا يمكن أن تكون هذه الرسالة صحيحة أو أن يكون الدكتور (فاروق) هو مَن أرسلها.. لا يمكن.

ثم التفت إليها صائحًا:

- أخبريني بفحوى الرسالة.

تساءلت ساخرة:

- هل سيصنع هذا فارقًا؟

أجاب بلهفة:

- بالتأكيد.

ظلت على صمتها فأكمل برجاء:

- أرجوك.

تنهدت قائلة:

- حسنًا.. كانت الرسالة كالآتي..

ثم حدّقت به حتى ترى وقع كلماتها على محياه:

- لقد وصلت لنهاية الطريق، أشعر أن النهاية دانية وأنني أسير نحو قدرٍ محتوم.. السر مع (يوسف) فلا تدعي دمائي تذهب هباءً.

أحاط رأسه التي كادت تشتعل بكفيه وهو يقول:

- هناك شيئًا ما خطأ، بالتأكيد هناك سرّ ما يكشف غموض كل هذا العبث.

ثم أكمل بعد برهة بنفس النبرة الذاهلة:

- لو كان لديه بالفعل شكوك تجاهي.. لماذا دعاني وشدد على حضوري اجتماعه الخاص مع ذلك البروفيسور يوم وقوع الجريمة.

- أي بروفيسورا ما هذا الذي تتحدث عنه؟!

صاحت بها بدهشة غاضبة فأجاب:

- لقد كان الدكتور (فاروق) على موعد هام في منزله مع شخص لا أعرفه

أسماه البروفيسور دون أن يضيف أي معلومة أخرى، لقد دعاني إلى حضور هذا اللقاء بنفسه وشدّد على هذا الطلب رغم محاولاتي للاعتذار عن الحضور.

قالت بشك:

- محاولة أخرى للمراوغة.

لمعت عيناه فجأة ولوّح بكفه صائحًا:

- لدي الدليل على صدق كلامي.

- أي دليل؟

أجاب بسرعة:

- مكالمة مسجلة على جهاز الرد الآلي بجهاز التليفون الأرضي بمنزلي.. من حسن الحظ أنني لم أقم بمسحها.. مكالمة بصوت الدكتور (فاروق) نفسه أجراها ليؤكد عليّ في الحضور وعدم التأخير نظرًا لأهمية اللقاء.

تساءلت بعجب:

- وما هذا اللقاء الهام الذي يجعل أبي متلهفًا بهذا الشكل على غير عادته؟!

هز كتفيه في حيرة وهو يُجيب:

- لست أدري.. حقيقةً لست أدري.

تطلعت إليه لحظات بريبة ثم تساءلت بحذر:

- وما الذي يجعلني أثق بكلامك؟ ما أدراني أنها ليست حيلة منك لتجد سبيلًا آخر إلى الهرب كما هربت من رجال الشرطة؟

- لا توجد لدي وسيلة أخرى لإقناعك سوى أن بإمكانك التأكد بنفسك.

وتستطيعين أخذ كل الضمانات الممكنة حتى لو اضطررت إلى تقييدي هنا.

أخذت تفكر في كلامه دون قدرة على اتخاذ قرار، بدا ذلك جليًا على ملامحها الحائرة فقال مشجعًا:

- أليس ذلك أفضل من الانتقام من إنسان بريء؟

هزت رأسها ببطء رغمًا عنها في موافقة قائلة:

- بلى.

لم تكد تُنهي كلمتها حتى تصاعدت دقات منتظمة على باب أجفلتها وألقت الذعر في قلبها خشية كشف أمرها، دقات جعلتها تلتفت جهة باب الشقة بوجل دون أن تدري ماذا تفعل. استمر الطرق ولكن تصاعد إيقاعه مع مرور الوقت، حتى تحوّل إلى ضربات قوية على الباب الخشبي جعلت (يوسف) يهمس لها قائلًا:

- أيًا مَن هو على الجهة المقابلة من الباب يبدو مصرًا ولن يرحل بسهولة.

قالت ساخرة:

- وماذا تقترح؟ أفتح الباب فتجد سبيلًا للهرب.

- لن أفعل.. لكِ عهدي على هذا.

أنهى جملته وتحرك من تلقاء نفسه تجاه الباب وهي تُحدّق به دون قدرة على الفعل، فتحه ببطء متطلعًا لمَن يقف بالجهة المقابلة.. كان رجلًا في منتصف العمر ما أن لمحه حتى حدّق به بدهشة لوهلة ثم قال:

- معذرة يا سيدي.. أنا حارس العقار وقد رأيت مصابيح الشقة مضاءة على غير العادة فأردت أن أستطلع الأمر.

ثم حاول أن يلقي ببصره إلى الداخل عبر الفرجة الضيقة التي صنعها (يوسف) في محاولة باءت بالفشل قبل أن يتساءل:

- هل الدكتور (فاروق) موجود؟

أجاب (يوسف) على الفور:

- للأسف الدكتور (فاروق) ليس موجودًا، لكن معي هنا كريمته الآنسة (سماح)، قد أتينا معًا لألقي نظرة على الشقة حيث أزمع شراءها.

قرن قوله بأن فتح الباب، أفسح المجال له ليرى (سماح) التي وقفت في منتصف الردهة وقد أخفت المسدس في طيات ثيابها، قال الرجل معتذرًا:

- أعتذر يا سيدتي عن تطفلي.. فقط أردت التأكد أن كل شيء على ما يرام.

- لا عليك.

قالتها (سماح) ثم أردفت موضحة:

- الأمر كما شرحه لك السيد (يوسف)، فأنا ووالدي ننتوي بيع الشقة، ونحن هنا لهذا الغرض.

كرر الرجل اعتذاره وانسحب على الفور، أغلق (يوسف) الباب وعاد ليجلس على المقعد في هدوء دون أن يتفوه بكلمة، كأنه يفسح لها المجال لتعيد التفكر في كلماته، علّ ما حدث يثبت لها أنه لا يفكر في خداعها وأنه صادق معها في كل حرف تفوه به..

بقيت هي أيضًا على صمتها للحظات ثم اتخذت قرارها قائلة:

- أنت ستبقى هنا ريثما أذهب أنا لأتأكد من صدق كلماتك.

أومأ (يوسف) برأسه موافقًا وهو يتنهد بارتياح، فأخيرًا وجد مَن يصدقه، وأخيرًا تجد كلماته السبيل إلى عقل وقلب أحدهم بعد ساعات من الظلام، ومَن يدري، ربما تكون البداية ـ بداية لبصيص من الضوء يُنير له هذا النفق الكئيب، علّه يخرج منه سالمًا.

"الأمور لا تسير على ما يرام".

ظلت تلك الجملة تتردد داخل ذهنه طويلًا، جلس منفردًا على مقعده المواجه للنافذة الزجاجية الكبيرة المطلة على الحديقة في هذا القصر الفخم المنعزل بعيدًا عن العمران والذي يحل به ضيفًا على مائدته، بينما عقله يسترجع في مشاهد خاطفة متلاحقة كل ما حدث خلال الفترة الماضية، ما حاق به، والثمن الباهظ الذي دفعه حتى يصل إلى ما حَلم به دومًا.. الثراء.. بل الثراء الفاحش الذي يُخضِع الجميع تحت قدميه.. الجميع بلا استثناء. تداعت الأفكار من ذاكرته حتى توقفت عند صورة واحدة لرجل واحد لعنه في سره..

(فاروق زيدان)..

ذلك الأحمق الذي أضاع بحمقه كل شيء، لم يكتف بذلك فقط، بل تسبب في إثارة اللغط حوله وجعل سهام الريبة تحاصره من كل اتجاه أثناء عملهما معًا بوزارة الآثار، حتى اضطُر مجبرًا على تقديم استقالته مؤخرًا بعد أن فاحت رائحته وزكمت الأنوف.. (فاروق) الذي وقف دائمًا حجر عثره في طريق أحلامه وجعلها تتبدد من أمامه كالسراب بعدما كاد يقبض عليها بيديه، ها هو يعود مرةً أخرى ليفسد عليه خططه مجددًا وكأن قدره أن يصارعه حيًا وميتًا..

- اللعنة عليك أيها الأحمق المغرور.

وجدت تلك الكلمات طريقها إلى شفتيه من فرط حنقه، نطق بها دون أن يدري قبل أن ينهض من مكانه متوجهًا إلى غرفة جانبية وقف على بابها حارسين، تخطاهما دون أن يتوقف، حتى وجد نفسه أمام (ألبرت) الجالس خلف مكتبه، يحدق بتركيز في شاشة حاسبه الآلي الشخصي، بينما أصابع يديه تنقر على أزراره في سرعة قبل أن يتوقف فجأة رافعًا عينيه نحو (شوقي) الذي قال متسائلًا باستياء:

- إلى متى سنبقى هكذا مكتوفي الأيدي؟

ظلّت ملامح (ألبرت) هادئة وهو يُجيب:

- هدئ من روعك سيد (شوقي).. لا داعي لكل هذا التوتر.

أثاره هذا الهدوء المعتاد أكثر فصاح:

- وما الذي لا يدعو للتوتر وقد فقدنا كل شيء؟!

بنفس الهدوء القاتل الذي يصل إلى حد البرود، تساءل (ألبرت):

- وهل سنستعيد ما فقدناه، أو ما تظن أننا فقدناه بمثل هذه العصبية؟

ألجم لسان (شوقي) فلم يحر جوابًا، أشاح بوجهه غاضبًا، مما حدا بـ(ألبرت) أن يبتسم بركن فمه ويستطرد:

- هكذا ديدنكم معشر العرب، كثيري الانفعال قليلي التفكير هذا هو الفارق بيننا وبينكم.

- لو كنت ستلقي على مسامعي محاضرة عن الفارق بيننا وبينكم فليست بي رغبة لذلك.

اتسعت ابتسامة (ألبرت) وهو ينهض من مكانه ويدور حول مكتبه

مواجهًا (شوقي) قائلًا:

- اطمئن.. لن أثقل عليك بما يفوق احتمالك، فلو كانت لديكم القدرة على الإنصات كما لديكم القدرة على الكلام، ربما كنتم في مكانة أخرى.

زفر (شوقي) في ضيق ونفاد صبر ثم لوّح بكفه قائلًا:

- دع عنك تباهيك وغطرستك فالغرور يقتل صاحبه، هذا ما حدث بالفعل في ما نسعى إليه. لقد سمحت لنفسك أن تدير الأمور كلها وحدك وبعقلك فقط، دون أن تستمع لأحد، وكانت النتيجة أنك أفسدت كل شيء، ونحن فقدنا كل شيء .

ثم مال نحوه متسائلًا بسخرية:

- أليس كذلك؟

ظل (ألبرت) محافظًا على هدوئه وابتسامته وهو يقول:

- ليس في كلامي شبهة تباهي أو غطرسة يا صديقي،بل هي الحقيقة المجردة كما يسردها التاريخ .. تاريخنا وتاريخكم.. أنظر وتمعن جيدًا يا دارس التاريخ وقل لي أين كنتم منا، وأين كنا منكم، وإلى ماذا وصل كل منا.. الفارق أننا نعرف هدفنا منذ البداية، بل منذ النشأة، نسعى له بكل صبر وحنكة، بينما تدورون أنتم في دوائر مفرغة لا نهاية لها.. دوائر رسمناها نحن.

ثم التقط سيجارة من علبته الموضوعة على المكتب وأشعلها، قبل أن ينفث دخانها بعمق ويقول مستدركًا:

- أما بخصوص ما نحن فيه وما أدرته أنا بعقلي وحدي،كما تقول فنحن لازلنا في البداية، مجرد بداية لا تحسم أي شيء.

قال (شوقي) بدهشة:

- تبدو مطمئنًا بشكل مبالغ فيه.

رد (ألبرت) بثبات:

- وأنت تبدو يائس بشكل مبالغ فيه.

لم يكد ينهي قوله حتى تصاعد رنين هاتفه الجوّال، التقطه بسرعة وهو يضغط على أيقونة قبول المكالمة، وضعه على أذنه فيما بدا أنه يتلقى معلومات غاية في الأهمية، استشفها (شوقي) من ملامح وجهه التي بدا عليها التركيز الشديد، قبل أن ينهي المكالمة ويقول ل(شوقي) بثقة ظافرة:

- ألم أقل لك أنها البداية فحسب.

تساءل (شوقي) باهتمام: ماذا هناك؟

لم يجبه بل بالأحرى تساءل هو:

- هل تعرف مَن يدعى (يوسف الجندي)؟

أجاب (شوقي) على الفور وهو يزوي ما بين حاجبيه في دهشة:

- سمعت هذا الاسم من قبل.. أظن أنه كان تلميذًا لـ(فاروق) ومساعده في نفس الوقت، لقد رأيته عدة مرات في مكتبه إبان عملي في وزارة الآثار قبل تركي لها.

- تقصد قبل طردك منها.

ابتلع (شوقي) الإهانة وإن جزّ على أسنانه في غضب، ثم أدار دفة الحديث كأنما لم يسمع ما قاله وهو يتساءل: ماذا عنه؟

أجاب (ألبرت):

- لقد تم القبض عليه في شقة (فاروق زيدان) بعد أن اكتشف الجثة يوم وقوع الجريمة وتم توجيه تهمة القتل العمد له، لكنه بوسيلةٍ ما استطاع الهرب من محبسه، هو الآن يتوارى بعيدًا عن الأنظار في شقة قديمة يمتلكها الدكتور (فاروق) نفسه.

غمغم (شوقي) متسائلًا في دهشة:

- وكيف له السبيل إليها؟!

تنهد مجيبًا:

- لقد التقي ابنة الدكتور (فاروق)، هي مَن قادته إليها.

تمتم (شوقي): أمرٌ غريب.

تابع (ألبرت) قائلًا ببطء:

- الآن لدينا أقرب اثنان إلى الدكتور (فاروق)، مساعده وتلميذه الأقرب إلى قلبه وابنته الوحيدة، يجتمعان معًا بعد وفاته بأيام.

ثم تساءل بخبث:

- ألا يثير هذا اللقاء هواجسك؟!

عاد (شوقي) يزوي ما بين حاجبيه وهو يغمغم:

- معك حق.. الأمر مثير للريبة بالفعل.

ثم رفع عينه إلى (ألبرت) متسائلًا بلهفة:

- لكن ماذا نفعل معهما؟ هل ننقض عليهما في مكان اختبائهما ونستخلص

منهما ما نريد من معلومات؟

هز الأخير رأسه نفيًا وهو يُجيب:

- بل نتركهما.

صاح (شوقي) بانزعاج:

- ماذا؟

أجاب بهدوء شديد:

- أقول أننا لن نكرر ما حدث من أخطاء، بل سنضعهما تحت رقابة لصيقة ومراقبة شديدة على مدار الساعة، حتى يقودانا إلى ما نريده دون عناء.

التمعت عينا (شوقي) في جشع، بينما ارتسمت بسمة واثقة على شفتي (ألبرت) الذي قال في ظفر:

- ألم أقل لك أنها البداية فحسب.

*****

(13)

توسط قرص الشمس قلب سماء هذا اليوم الصافية، تألق ملقيًا أشعته على الأرض بعد أن انتصر في معركته الأزلية وهتك أستار ليل انسحب مدحورًا، بينما ازدحمت الطرقات بالسيارات والمارة في ساعة الذروة من ظهيرة اليوم أمام ذلك العقار، تحركت صوبه (سماح) في خطوات حذرة دون أن تلقى بالًا من أحد بمن فيهم حارس العقار الذي تخلى عن موقعه الأثير، ربما لقضاء بعض حاجياته الشخصية، أو تلبيةً لرغبة أحد السكان، مانحًا الفرصة لها للصعود دون مضايقات إلى الطابق الثاني حيث تقبع شقة

(يوسف)، دخلت بيسر مستخدمة مفتاحًا حصلت عليه عن طيب خاطر من هذا الأخير حتى تتأكد من صدق كلماته فتهدأ نفسها ويطيب خاطرها.

كانت حتى هذه اللحظات تتقلب على جمر الشكوك.. ما بين مصدِّقة لشهادته ومكذبة لادعاءاته.. قلبها يكاد يؤمن بكل كلمة نطق بها لسانه، بينما عقلها يأبى التصديق، وهي بينهما حائرة في منطقة رمادية لا تحسم شيئًا.

لكن لحظة الحسم قد دانت، هي الآن على بُعد خطوات من جهاز هاتفه الأرضي، الذي انبعث منه استجابة لضغط إصبعها على زر استعادة المكالمات الواردة والمسجلة على الفُجيب الآلي.. صوت والدها الهادئ..

لم تستطع كبح جماح دموعٍ انهمرت من عينيها بعدما وخزتها الذكريات حزنًا وألمًا على السند الذي فقدته، الجدار التي كانت دائمًا ما تلوذ به حين تبغي الحماية والأمان، وهي تستمع إلى كلمات والدها الهادئة ونبراته الحنون.. كفكفت دموعها بعد أن تيقنت وتأكد صدق حدس قلبها، همَّت بمغادرة الشقة والبناية بأكملها حين اصطدم بها على الباب رجل متعرِّق يلهث، عاجلها بالسؤال قائلًا:

- هل هذه شقة أستاذ (يوسف الجندي)؟

أجابت وهي تتحاشى النظر إليه بنبرة متوترة:

- نعم.. لكنه ليس متواجدًا الآن.

بفضول تساءل:

- أنتِ قريبته؟!

ترددت للحظة قبل أن تحسم أمرها وتُجيب:

- أنا أخته، هل من خدمة أقدمها لك؟

عبث الرجل في حافظة أوراق يحملها قائلًا:

- في هذه الحالة يمكنك تسلم هذا الخطاب الموجّه إليه.

قالها وقرن قوله بأن أخرج خطاب سلمه إليها، حصل على توقيعها بالاستلام وانسحب مسرعًا. انتظرت قليلًا حتى غادر ثم تبعته مغادرة المنطقة بأكملها، دون أن تلحظ أعين متناثرة حولها ظلّت تتبعها كظلها، بينما هي تسير شاردة تجتاحها عواصف تتصارع داخلها وتعزلها عن كل ما حولها ومَن حولها، وسؤال واحد يؤرقها ويلح على عقلها دون أن تفلح في الوصول إلى إجابة عنه..

إن لم يكن (يوسف)، فمَن؟!

مَن قتل والدها ومثّل بجثته بتلك الطريقة البشعة؟!

والسؤال الثاني هو.. لماذا؟

ماذا كان يبغي من رجل مسالم هادئ الطباع؟!

رجل لا توجد في حياته أي عداوات من أي نوع.

استمرت تساؤلاتها تضطرم داخل عقلها كحمم بركان على وشك الثورة.. حمم تبحث عن ثغرة واحدة للانفجار، استغرقت فيها حتى النخاع إلى أن وصلت بعد حين إلى حيث تركت (يوسف)..

كان هذا الأخير هو الآخر يعيش حالة استثنائية من القلق والتوتر ينتظر حضورها على أحر من الجمر حتى تؤكد له براءته، وتؤكد أيضًا أنه لم يكن يهذي حين استمع إلى مكالمة دكتور (فاروق)، بعد أن أصبح يشك في كل

شيء حتى نفسه.

لم يطل انتظاره كثيرًا وانتبه بكل حواسه نحو باب الشقة حين التقطت أذناه صوت مفتاحها يدور في رتاجه، دلفت إلى الداخل وهو يتطلع إليها بلهفة وعيناه تحدقان صوبها بقلق.. قلق بددته سكينه غمرت قلبه إثر جملة واحدة نطقت بها شفتيها حين قالت:

- لقد كنت على حق.

جلس على أقرب مقعد إليه وهو يتنفس الصعداء، زفر بحرقة منفسًا عن كل ما اعتمل بداخله من مشاعر خلال الأيام القليلة الماضية قبل أن يتمتم:

- الحمد لله.

- لم ينته الأمر بعد.

قالتها ببطء، فعاد يُحدق بها بقلق متسائلًا:

- ماذا تعنين؟!

هزت كتفيها مُجيبة:

- أعني أن براءتك قد حُسمت بالفعل..

ثم استدركت بسرعة:

- بالنسبة لي على الأقل.. لكن..

توقفت لوهلة مفكرة فحثها على الاستطراد متسائلًا:

- لكن ماذا؟

أجابت بحيرة:

- إن لم يكن أنت فمَن؟

حدّق بها دون أن يتفوه بحرف فأكملت بتساؤل آخر:

- ولماذا؟

هز رأسه بحيرة أكبر مما تعانيها قائلًا:

- لست أدري.

جلست بجانبه قائلة:

- أنت كنت أقرب شخص لوالدي في الفترة الأخيرة.. لابد أن هناك شيئًا ما أدى لهذا الانقلاب في حياته.

- صدقيني لست أدري.

أعادت الكرّه علّه يتذكر ما يُنير لهما الطريق:

- حاول أن تتذكر أي شيء حتى ولو تفصيلة بسيطة ممكن أن تكون طرف خيط يقودنا إلى الحقيقة.

أغلق عينيه بشدّة وأخفى وجهه بين راحتيه بحثًا عن مزيد من التركيز وهو يعتصر خلايا عقله في تفكير عميق أعاده إلى أيام وأسابيع مضت قضاها مع أستاذه.. أيام مرّت كومضات خاطفة أضاءت له عديدٌ من الذكريات..

قبل الجريمة بأيام..

عبر (يوسف) مدخل مقر وزارة الآثار المصرية بحي الزمالك ملقيًا تحية سريعة بيده إلى ضابط الأمن الذي جلس بهدوء في مكانه المعتاد، استقل الدرج وارتقي إلى الطابق الأول حيث رواق طويل توزعت على جانبيه عدة

حجرات، على باب كل منها لوحة معدنية تحمل اسم قاطنها من مسئولي وباحثي الهيئة. خطا بهدوء نحو آخر مكتب جهة اليسار وهو يسترجع ويفند داخل عقله بعض نقاط اهتدى إليها في البحث الجديد الذي يعمل عليه، نقاط سيناقشها مع أستاذه بصفته مشرفًا على المشروع بأكمله..
توقف أمام باب حجرته.. باب حمل كسابقيه لوحة معدنية دوّن عليها اسمه مستبقًا بدرجته العلمية ومشفوعًا بمنصبه الحالي، عدّل من هندامه سريعًا ورتّب أوراقه، ثم همّ بالطرق لولا ما سبقه من الداخل وجعل يده تتوقف دون حراك..

كان صوت دكتور (فاروق) مرتفعًا على عكس طبيعته الهادئة، في خضم مناقشة حادة انفلت عيارها، تسللت الأصوات إلى حيث يقف بالخارج تتنازعه الحيرة، متحرجًا من الطرق على الباب أو الاستئذان في الدخول..
أيقن أن الأمر جلل حين تناهى إلى مسامعه صوت رجل يتشارك المناقشة المحتدمة مع أستاذه وهو يقول:

- أنت بذلك تخاطر مخاطرة كبيرة يا (فاروق)، وتغامر بخسارة كل شيء.

تنهد (فاروق) بصوت مسموع:

- لا حيلة لدي غير هذا الأمر.

- وابنتك التي تدرس بالخارج.. هل فكرت في مصيرها وحجم الأخطار التي من الممكن أن تُحيق بها وبك؟

- إنني أفعل ما أفعله من أجلها، عزائي أنها بالخارج ستكون في أمان بعيدًا عن كل هذا العبث.

- لا زلت أرى أن تتروى وتتفكر قليلًا في الأمر.

- سأرى كل ما يمكنني عمله، عسى أن تكون كل هواجسنا خاطئة ويكون ما هو قادم ليس بالخطورة التي نتصورها.

ثم صمت برهة واستطرد:

- المهم أن تحفظ العهد يا (عزيز)، وعندما يحين الوقت تنفذ ما اتفقنا عليه.

- وكيف أعلم أن اللحظة قد حانت؟

- ستعرف من تلقاء نفسك.

- متى؟!

- حين يأتون إليك.

ران الصمت على المكان بعد جملته إلا من عناقٍ حار أعقبه فتح باب الحجرة، أجفل (يوسف) وتراجع قليلًا إلى الخلف قبل أن يخرج رجل خمسيني العمر أشيب الشعر كث اللحية، يرتدي عوينات طبية سميكة تلتمع من خلفها عيناه بالدموع.. لم يلحظ تواجد الأول في بادئ الأمر حتى انتبه إليه فأشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى وسار مبتعدًا.

ظل (يوسف) متجمدًا في مكانه والكلمات التي سمعها منذ لحظات لا يزال وقعها شديد الوطأة على أذنيه، متحيرًا من تفسير فحواها، وما هي المخاطر الجمة التي تحدث عنها أستاذه والعهد الذي قطعه هذا الرجل الغريب؟..

والسؤال الأهم.. مَن هو هذا الرجل؟ وما هي علاقته بالدكتور (فاروق)؟.. أسئلة عبثت بعقله وكدرت خاطره، كادت تُنسيه سبب مجيئه من الأساس.. أسئلة نفضها عن عقله بسرعة وهو يعتدل ويطرق الباب ثم يدلف إلى

الداخل.

كان الدكتور (فاروق) جالسًا خلف مكتبه منكس الرأس، يحتويها بين راحتيه في همٍّ وكدر عندما سمع صوت الطرق واستشعر وجود (يوسف)، اعتدل بسرعة وهو يحاول رسم بسمة باهتة على محياه، تلاشت سريعًا وهو يقول مرحبًا:

- مرحبًا (يوسف).

تقدم (يوسف) إليه، جلس على المقعد قبالته وهو يتفرس في ملامحه التي شابها حزن وأسى قبل أن يتساءل:

- ماذا بك يا دكتور؟ هل هناك خطب ما؟ إنني أراكمتجهمًا على غير العادة!

شعر (فاروق) أن حزنه قد غلبه فكشفت ملامحه عن مكنون ما يحويه بين أضلاعه، شرع في تخفيف الأمر وعاود رسم بسمته الباهتة مجددًا وهو يُجيب أسئلة تلميذه القلِق قائلًا:

- لا شيء يا بني.. أنا بخير.

تساءل (يوسف) بفضول:

- هل كدّر صفوك ذلك الرجل الذي كان هنا منذ قليل؟

أجاب (فاروق) بسرعة كأنما يدرأ تهمة عن نفسه:

- لا.. لا.. إنه صديق قديم مر لزيارتي.

عاد (يوسف) يتساءل من جديد:

- لكن خُيّل إليّ أنك كنت محتدًا بعض الشيء.

نظر له (فاروق) لبرهة ولم يُعقِّب فتلعثم قائلًا:

- معذرة على تطفلي يا دكتور، لكن صوتك كان مرتفعًا أثناء مناقشتك معه حين دنوت أنا من الدخول.

بحسم أجاب وهو يُغلق باب الحوار في هذا الشأن قائلًا:

- كنت فقط أسوي بعض الأمور.

ثم أدار دفة الحديث متسائلًا:

- دعك من كل هذا الآن وأخبرني إلى أين وصلت في البحث الذي تعمل عليه؟

أيقن (يوسف) أن سؤال أستاذه ما هو إلا محاولة لوقف الاسترسال في هذا الأمر، تجاوب معه مضطرًا وقَدَّم الملف الذي بيده، تناوله الأخير وهو يُثبِّت عويناته الطبية على عينيه ويطالع سريعًا الأفكار التي قدمها (يوسف)، بينما الأخير يكمل الصورة قائلًا:

- لقد سردت في هذه المذكرة بعض أطروحات تم تداولها مؤخرًا حول هذا الموضوع، ثم شرحت وجهة نظري وتقييمي لكلٍ منها على حِدة من حيث أوجه الشبه والاختلافات، وأيهم أقرب إلى المصداقية، وفي نهاية الدراسة ستجد استنتاجي الخاص واقتراحاتي لخطوات العمل في المراحل المقبلة.

انتهى (فاروق) من مطالعته السريعة فنزع عويناته قائلًا:

- دراسة وافية بالفعل يا (يوسف).. أشكرك.

- هذا ما تعلمته منك يا أستاذي.

أغلق الملف قائلًا بهدوء:

- حسنًا.. سأدرس هذه المذكرة بشكلٍ أوفى وأعمق ثم نجتمع لنحدد كيفية البدء في خطواتنا المقبلة.

- وأنا رهن إشارتك في أي وقت.

قالها وهو ينهض من مكانه ويهُم بالمغادرة، حين التقطت عيناه ما أثار بداخله نوازع الفضول.. ملفٌ بلاستيكي يحوي عدة أوراق حمل عنوانًا جذب انتباهه بشدة، ثبتت عيناه عليه ولم يحد نظره عنه قيد أنملة.. عنوان حمل اسم.. الهيكل المقدّس.

* * * * *

(14)

تحت جُنح الظلام، بعد أن ساد السكون الأرجاء داخل المعبد المنعزل، جلس (ددف رع) جلسته المعتادة داخل قاعته الصغيرة أو بالأحرى صومعته الخاصة مغلقًا عينيه، يبدو لمَن يلاحظه كما لو كان غافيًا، أو يتلو صلوات خاصة، أو غارق حتى النخاع في تأملات حلّقت به في سماوات رحبة بعيدًا عن موضعه الصغير.. لكن الحقيقة أن ما كان يدور داخل عقله في تلك اللحظة أبعد ما يكون عن الهدوء والسكينة الباديتان عليه.. كان في خضم بحر متلاطم من الأفكار، فيما كان وعن ما سيكون، بعد أن جنحت بهم الأحداث إلى هذا المنحى الخطير.

استغرق في أفكاره بكل جوارحه لفترة طويلة، التهمت كل تركيزه حتى أنه لم يشعر ربما لأول مرة في حياته بمَن تسلل بخِفّة إلى داخل القاعة وأخذ يقترب منه ببطء وحذر شديد، حتى صار على مسافة خطوات من مرقده، عندها بدأ (ددف رع) يستعيد حاسته من جديد، نهض بسرعة

شديدة وهو يستدير مذعورًا إلى الخلف قبل أن يزفر بقوة ويقول محنقًا:

- اللعنة عليك.. كاد قلبي أن يتوقف من الذعر.

- ألهذه الدرجة أصبح الخوف يلازمك؟!

قالها ذلك الغريب قصير القامة.. نحيل الجسد.. حاد النظرات حتى تكاد عيناه تضيئان في ظلمة الليل، فرد (ددف رع) بعنف:

- لأن الأمور تتسارع الآن على نحوٍ رهيب، وقد بلغت الخطورة ذروتها.

قال الرجل القصير بهدوء: نحن نعلم هذا.

قال (ددف رع) بحِدّة:

- لكن ما لا تعلمونه أن النصال الحادة ستُطيح برقابنا عند أول بادرة فشل.

رفع القصير يده أمام وجه (ددف رع) قائلًا بصرامة:

- هدئ من روعك أيها الكاهن وكن ثابتًا كما عهدتك، فأنا أحمل لك كلمات من الملك المعظَّم.

ردد (ددف رع) بدهشة: الملك المعظَّم.

أومأ القصير برأسه إيجابًا ثم قال:

- نعم.. إنه يبلغك أن الوضع قد صار لا يُطاق بالنسبة إليه ويثير غضبه على الدوام ويطلب منك ومَن معك أن تضربوا ضربتكم في القريب العاجل.

- هذا بالفعل ما انتويته وأخبرت به قائد الجيش.

زوى القصير ما بين حاجبيه متسائلًا: وماذا كانت ردة فعله؟

- لقد عارض الأمر بشكلٍ عنيف خشية الانزلاق إلى صدام دامي غير مأمون العواقب على حد قوله، يقود البلاد إلى حرب داخلية طاحنة تستنزف البقية الباقية من مواردها.

قال القصير والقلق بدأ يغزو ملامحه:

- معنى هذا أن الخطة فشلت أو على أفضل الاحتمالات ستؤجل لأجلٍ غير معلوم.

ثم ضيق عينيه مكملًا:

- هذا الأمر لن يرضي الملك بكل تأكيد.

قال (ددف رع) مستدركًا وقد هاله تصور غضبة (نبوخذ نصر) الضارية:

- لم أقف أنا مكتوف اليدين بالطبع.

عاد القصير يتساءل بحذر: بمعنى!

قال (ددف رع) بحماس:

- لقد زرعت الرعب في قلب قائد الجيش، أخبرته أن دائرة الشكوك تُحيط به وتضيق حول رقبته يومًا بعد يوم، خاصةً من قِبَل الكاهن الأكبر الذي بدأ يسترِيب في أمره منذ مدة.

قال القصير بشك: وهل هذا سيدفعه للمضي قُدمًا، أم سيجعله يجفل ويتراجع إلى الخلف ويغسل ثوبه من دنس الخيانة، مضحيًا في سبيل ذلك بكل مَن عاونوه.

ثم أشار بسبابته إلى صدر (ددف رع) قائلًا:

- حتى أنت.

أربدت معالم وجهه بعد أن اخترقت الكلمات قلبه بلا رحمة، وذهنه يطرح التساؤل نفسه.. ماذا لو خان (أمازيس) العهد ووشى بالجميع في سبيل أمانه الشخصي؟ ماذا لو أصبح محاصرًا بين انتقام الملك (واح إيب رع) وكبير كهنته وغضب (نبوخذ نصر) العاتي وأذرعه الطويلة التي ستطاله حتمًا أينما حل؟

ألحت التساؤلات على عقله بعنف دون أن يحصل لها على إجابة شافية.

في غرفته الخاصة داخل قصره الكبير، وقف (أمازيس) جامدًا كتمثال قُدّ من صخر يُحدّق في الأفق والقمر الفضي الذي توسط سماء الليل حالكة السواد.. كانت أفكاره تشارك السماء سوادها بعد أن أنهى مقابلته مع الكاهن (ددف رع)، وبعد أن علم منه حجم ما يقترب إليه من خطر.. ذلك الخطر المحدق الذي يقترب من رقبته ببطء ثعبان سام..

استعاد مرةً أخرى مشهد ذلك الرسم المزخرف على باب قاعة المعبد الصغير وقد أصبح يتساءل.. مَن هو هذا الثعبان الذي سيلتهم صولجان الفلك؟ هل هي الفوضى التي تضرب البلاد داخليًا حتى شارفت على تمزيقها إلى أشلاء؟ أم هُم البابليون الذين يتربصون على الحدود الشرقية وقد برزت أنيابهم استعدادًا للانقضاض على فريسة جريحة؟

تذكر انك حملت رواية تابوت العهد حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

أم ربما هو نفسه ذلك الثعبان؟ مَن يدري؟ لقد أصبح محاصرًا بين المطرقة والسندان.. لا يأمن مكر (ددف رع).. ولا يأمن غدر الملك (واح

إيب رع) وكبير كهنته الذي يراقبه عن كثب. أين المفر؟

لا بد له من التحرك بسرعة.. في ألعاب الحروب وحده الأسرع وصاحب المبادرة مَن ينتصر.. هكذا تعلّم في المدرسة العسكرية، وهكذا كان ديدنه على الدوام.

دارت هذه العاصفة الهوجاء من الأفكار داخل رأسه، صاحبها سيل من التساؤلات استغرق فيها حتى انتبه على صوت طرق على باب غرفته تبعه دخول أحد رجاله المخلصين، وقف بين يديه في احترام منتظرًا إشارة الإذن ليبدأ الحديث، لكن (أمازيس) كان البادئ حين تساءل بلهفة:

- هل رصدتم شيئًا؟

أجاب الجندي بسرعة:

- لقد راقبنا ذلك المعبد المنعزل بمنتهى الحذر كما أمرت سيدي القائد ولم نجد ما يُثير الريبة، هو لا يعدو أكثر من معبد لا يحدوه الزوار على مدار اليوم، بل هو أقرب إلى صومعة خاصة للعبادة والتأمل.

ظهرت علامات الإحباط على وجه (أمازيس) لولا أن استدرك الجندي قائلًا:

- لكن في ساعات الليل الأخيرة وفي قلب الظلمة، وجدنا رجلًا يتسلل بحذرٍ شديد إلى الداخل.

حلّت علامات الدهشة محل الإحباط على وجه القائد، قطب جبينه في تفكير عميق ثم تساءل مجددًا:

- رجل ليس من خدم المعبد أو أحد كهنته؟!

هز الجندي رأسه نفيًا:

- بل بدا غريبًا عن المكان يا سيدي.

ازدادت ملامح (أمازيس) حِدّة وهو يعتصر عقله مفكرًا.. ما الذي يدفع رجل غريب للذهاب إلى هذا المكان القفر في مثل ذلك التوقيت؟!

ليس عابر سبيل أو رجلًا ضل الطريق يبحث عن مأوى، بل هو رجل يعرف هدفه جيدًا. يبدو أن الكاهن (ددف رع) له خطط أخرى ينفذها بمفرده، هذا معناه أن الخيانة وشيكة وخطة الإطاحة به جاهزة.. إن ما كان يخشاه ويُثير هواجسه يبدو أنه يتحقق حرفيًا..

رفع عينه نحو الجندي الذي وقف في احترام ينتظر وقال:

- هل مكث ذلك الرجل داخل المعبد أم غادره؟

- بل خرج منه ثم تبعناه إلى المكان الذي يمكث فيهقبل قدومي إليك يا سيدي، ولقد تركت أحد رجالنا يرقبه ويتبعه كظله .

- عظيم.. لا تدعه يفقد أثره ونفذ ما سأقوله لك الآن بمنتهى الدقة.

ثم استغرق بعدها في شرح خطة ستقلب الموازيين كلها رأسًا على عقب.

* * * * *

(15)

دقائق كاملة مرّت والاثنان على ثباتهما، حتى يُخيّل وكأن المشهد قد جُمّد تمامًا.. (يوسف) يجلس مكانه محني الظهر دافنًا وجهه بين كفيه دون حراك، (سماح) تجلس بجانبه وعيناها مثبتتان عليه، تدعو الله أن يلهم عقله ما يُنير لهما طريق كاد يتحول إلى تيه يفقدان بداخله أملهما الأخير

لمعرفة الحقيقة.. حقيقة ما كان..

لم تشعر الأخيرة بمضي تلك الدقائق، عاشتها والأمل يحدوها حتى رفع (يوسف) وجهه فجأة وهو يضيّق عيناه في خضم التفكير لذا قالت:

- لقد تذكرت شيئًا.. أليس كذلك؟

نطقت بها (سماح) وعلامات اللهفة تطفر على وجهها، رفع (يوسف) عينيه إليها محدّقًا لبرهة قبل أن يُجيب: بلى.

قالت بلهفة أشد: أخبرني بكل شيء.

قص عليها كل ما رآه وسمعه بالتفصيل، وصف لها ما لاقاه من توتر وارتباك والدها في ذلك اليوم حتى تتشارك معه الصورة كاملة، قالت متسائلة بدهشة:

- لكن ما هو هذا السر الذي أصر والدي على إخفائه إلىهذه الدرجة؟

هز (يوسف) رأسه وهو يُجيب:

- لست أدري.

عادت تسأل:

- ألم يُفصح لك عن أي شيء يُثير ريبته أو يهدد حياته؟

- كلا.. لكن....

توقف عن الاستطراد لوهلة كانت كافية كي تسأل بلهفة:

- ماذا هناك؟

نظر لها وعيناه تلتمعان:

- ربما لم يفصح لي ولكنه أفصح لشخص آخر.

تساءلت بحذر:

- أتقصد ذلك الـ...؟

أومأ برأسه وهو يقاطعها:

- ذلك الصديق الغامض المدعو (عزيز).

خيّم الصمت عليهما بعد جملته ووأد الكلمات قبل أن تجري على لسانيهما لفترة من الزمن طالت بعض الشيء، حتى قطعته هي متسائلة:

- كيف سنعثر عليه؟

- أعتقد أنك الأجدر بمعرفة ذلك.

فهمت ما يرمي إليه على الفور فقالت وهي تفتح حقيبتها:

- لدي هاتف والدي الجوّال، ربما وجدنا في قاعدة بياناته ما يُنير لنا الطريق.

قامت بفتح جهاز الهاتف، بينما أخذ (يوسف) يتابعها بشغف وهي تبحث في قائمة الأسماء المسجلة على ذاكرته قبل أن تهز رأسها نفيًا وتقول:

- لا يوجد بذاكرة الهاتف مَن يحمل اسم (عزيز).

ظهرت معالم الإحباط على وجه (يوسف)، لكن سرعان ما تلاشت حين استطردت قائلة:

- لكن هناك اسم آخر قريب، أعتقد أنه مَن نبحث عنه.

وجهت شاشة الهاتف نحوه ليراها وهي تكمل:

- (عبد العزيز مطاوع).

حدّق في الاسم مليًا:

- نعم.. يبدو أنه هو مَن نبحث عنه.

- وما هي الخطوة القادمة؟

- أن نصل إليه ونستقي منه ما يخفى عنا، بعدها نحدد ماذا سنفعل.

أطاعت كلماته دون مناقشة، وترجمت ذلك بالضغط على أيقونة الاتصال ومعه أيقونة فتح سماعة الصوت بحيث يسمع (يوسف) المكالمة معها، مرت ثوان كانت بالنسبة إليهما بطيئة للغاية وصوت الرنين الرتيب يطرق آذانهما في هدوءٍ مستفِز، تكاد أعصابهما تخرج عن طورها ويفلت زمام تحكمهما في نفسيهما مع كل رنين للهاتف دون استجابة، حتى ندت عن (يوسف) بادرة يأس شديد حين فرّت من بين شفتيه كلمة: تبًا!

نظرت له (سماح) وتنهد بيأس، إلا أن نظرها تحوّل إلى الهاتف ومعه نظر (يوسف) حين توقف الرنين فجأة على إثر صوت انبعث من الطرف الآخر وهو يتساءل بحِدّة غير مبررة:

- مَن المتحدث؟

مرّت برهة صمت وهما غير قادران على الرد كأنما فقدا القدرة على الكلام، عاد الصوت يتساءل مكررًا بحدّة أكبر امتزجت بنفاد صبر:

- مَن المتحدث؟

التقطت (سماح) شهيقًا عميقًا زفرته في قوة كي تهدئ من انفعالاتها ومشاعرها المضطربة قبل أن تُجيب:

- مساء الخير يا سيدي.

- مساء الخير.. مَن أنتِ؟

تساءلت بحذر:

- هل أتحدث إلى دكتور (عبد العزيز مطاوع)؟

جاوب سؤالها بسؤال صارم:

- قلت مَن أنتِ؟!

- أنا (سماح) ابنة الدكتور (فاروق زيدان).

حظيَ الطرف الآخر بنصيبه من الصمت هذه المرة ثم قال بشك يتقاطر من كل حرف من حروف كلماته:

- من أين حصلت على هذا الرقم؟

أجابت بسرعة:

- هذا الرقم مسجَل على هاتف والدي الذي أحدثك منخلاله.

لم تتلق ردًا فتساءلت بقلق:

- سيدي.. هل تسمعني؟!

- ستصلك رسالة الآن، نفذي ما بها من تعليمات.

قالها وأنهى المكالمة فجأة دون أن تجد الفرصة للرد أوالتساؤل من جديد، بقيت على صمتها وإن نظرت إلى الهاتف بدهشة طاغية، دفعت (يوسف) للحديث قائلًا:

- مزيد من الأسرار والتساؤلات.

تساءلت مشدوهة من فرط ما مرّت وتمر به من أحداث صاعقة:

- ما هذا الذي يحدث لنا؟!

- نحن في خضم حلقة مفرغة من الأخطار والأحداث الجسام.. إما أن ننجو فنخرج منها سالمين أو تُهلكنا كما أهلكت والدك من قبلنا.

لم يكد ينتهي من جملته حتى تصاعد رنين مميز من الهاتف دلالة على استقبال رسالة نصيّة، فتحتها (سماح) على الفور وقرأت بصوتٍ واضح ما بها من كلمات مقتضبة، جعلت (يوسف) يزوي ما بين حاجبيه في تركيز محاولًا استقراء ما يقبع خلفها من معان، بينما أغلقت هي الهاتف وهمّت بوضعه داخل حقيبتها، اصطدمت عيناها بمظروف مغلق نسيته في غمرة ما حاق بها منذ وصلت.. لذا فقد التقطته ومدت يدها به نحو (يوسف) الذي نظر لها باستفهام فقالت:

- هذا المظروف يخصك.

- لي أنا!!

- نعم.. سلمه لي ساعي البريد بعدما أخبرته أنني شقيقتك.

نظر لها بدهشة للحظة ثم تناول المظروف منها وفتحه بسرعة، اتسعت عيناه في غير تصديق بدا جليًا على محياه لدرجة دفعتها لأن تتساءل بقلق:

- ماذا هناك؟

رفع عيناه نحوها مُجيبًا:

- إنها رسالة من والدك.

فقط لتتسع عيناها هي هذه المرة.. لكن في ذهول.

(حين تصلك رسالتي تلك يا (يوسف) أكون أنا قد فارقت الحياة أخيرًا.. فارقتها تاركًا لك خلفي ما يُثقل كاهلك.. يعلم الله إن كانت نهاية رحلتي قد جاءت على قدر ما أتمنى، أم أنها حملت لي ما هو أسوأ مما كنت أتوقعه...

أغلق (يوسف) عينيه في ألم متوقفًا عن إكمال قراءة رسالة أستاذه حين راوده مشهد جثمان هذا الأخير وهو مُلقى على أرضية شقته وقد تمزق في مواضع شتى، اجتاحه ألم عاصف عصي.. صارعه حتى تغلّب عليه.. هزمه برغبته القاهرة في استيضاح الحقيقة الخفية.. بقتاله في الدفاع عن حياته وحياة ابنة أستاذه.. ابنته التي أصبح يشعر فجأة بمسئولية تجاهها.. لأول مرة في حياته يفقد حذره وتنهار دفاعاته الحصينة فيشعر بمسئولية تجاه شخص ما..

عاد للقراءة من جديد حين حثته (سماح) بلهفة.. عاد يغرق في الكلمات الملغّزة.

(لكن قدرك يا بني أن تحمل أنت هذا الإرث.. قدرك أن تكون وريث هذه المعاناة، أجل يا (يوسف).. لن يكون جُلّ ميراثي لك أبحاث ودراسات وعلم فنيت عمري في تحصيله وتنقيحه، بل هي الحقيقة التي أعياني الحفاظ عليها.. طويت عليها جوانحي لسنوات حتى أصبحت جمرًا يحرقني.. لم يكن تعبير جذوة نيران الحقيقة مجازيًا كما كنا نتخيّل. الحقيقة التي على قدرها تأتي المعاناة.. تلك المعاناة التي خبرها المبشرين والأنبياء والرُسل وكل ذي مبدأ وصاحب كلمة حق.. لذلك أدعوك يا بني أن تكون صلبًا مقاتلًا كما عهدتك دومًا، ولتكن على قدر الاسم الذي حملته منذ مولدك. أدعوك أن تقاتل عليها، أن تسع خلفها يا حامل اسم النبي. اطوِ الصحاري والوديان ولا تألُ جهدًا. أمخر عباب بحرك إن استطعت لتصل إليها وفي النهاية ادعُ لي.

علّ ما عانيته فيما مضى يكن شفيعًا لي فيما هو قادم).

أنهى (يوسف) الرسالة والدموع الحبيسة تلتمع في عينيه.. تلك الدموع التي وجدت مهربها على وجه (سماح) ففرّت منسابة على خديها وصورة والدها وكلماته الرقيقة تعابث مخيلتها. نظر (يوسف) إليها بصمت محترمًا مشاعرها، مسحت القطرات التي انسابت على وجهها بكفيها واستعادت رباطة جأشها قائلة بثبات:

- الرسالة بأكملها موجهه إليك.

أومأ برأسه موافقًا وقرن ذلك بقوله:

- بالفعل، وإن كنت أشعر أنها تُبطن أكثر مما تُظهر.

تساءلت بدهشة: كيف؟!

- هذه ليست مجرد رسالة، بل هي وصية.. وصية أستاذ أسلم الروح في سبيل ما آمن به، وعلى التلميذ تنفيذها مهما كلفه الأمر.

تنهدت قائلة:

- نحن في منتصف الطريق بالفعل، ولا سبيل للتراجع.

أمّن على قولها قائلًا: صدقت.. لا سبيل الآن للتراجع.

ثم ظهر التصميم على ملامحه وهو يكمل:

- سنقطع هذا الطريق معًا حتى نهايته، وستكون نقطة البداية من خلال هذا الصديق الغامض الذي ظهر فجأة.

قالها وتلاقت أعينهما بعد أن عقدا العزم على إكمال المسير.. معًا.

تصاعدت طرقات بطيئة منتظمة على الأرضية المصقولة للبهو الملكي داخل قصر الحكم في قلب مدينة مايس.. عاصمة المملكة المصرية.. طرقات ناتجة عن عصا غليظة يحملها كبير كهنة مجمع الآلهة، يتكئ عليها وتصاحبه أينما حلّ أثناء سيره البطيء، تساعد قدر المستطاع عظام ساقيه الواهنتين بعد ما يزيد عن ثمان عقود من العمر قضاهم في خدمة المعبد المقدّس.

أخذ هذا الأخير يقترب بخطوات ثقيلة من قاعة العرش الملكية حيث تدار شؤون الدولة، يجتمع بها كبار القادة والحاشية الملكية وبعضٌ من حكّام الأقاليم الذين يتم استدعاءهم لمناقشة أمور ملّحة طارئة تنتسب إلى مناطقهم، ما أن وصل إلى مدخل تلك القاعة حتى خفتت الأصوات قليلًا وتعلّقت به بعض الأعين وهو يقترب من الملك (واح إيب رع) الجالس بفخر على عرشه المذهّب، ممسكًا بصولجان الحُكم الذهبي الذي توارثه عن والده وأجداده ومن خلفه ترعاه وتحفظه الإلهة نيت.. أم الآلهة.. واهبة الحياة على الأرض وسيدة الحرب التي نُقش وزُخرف لها نقش جداري ضخم على شكل امرأة تحمل رمحًا ودرعًا ذو مهمين متقاطعين على الجدار خلف العرش.

تلقى الملك تحية كبير الكهنة المقتضبة وإن تساءل في قرارة نفسه عن سبب تجهم هذا الأخير لكن مشاغل الحُكم وأموره أدارت دفة رأسه إليها فانغمس في هُموم الدولة التي اصبحت تزداد يومًا بعد يوم كفيضان كاسح لا يقدر أحد على إيقافه، حتى فرغت القاعة أو كادت فالتفت (واح إيب رع) إلى كبير الكهنة قائلًا:

- أنت على غير عاداتك اليوم.

تنهد الأخير بصوت مسموع قائلًا:

- الكثير مما يؤرّق الفكر ويثقل القلب بالهموم يا مولاي.

- انفض عن نفسك هذا الهم والق ما يحمله قلبك على مسامعي، عسى أن أجد لك ما يطيب له خاطرك.

نظر كبير الكهنة حوله بصمت، فهم (واح إيب رع) مغزى تلك النظرات وما يرمي إليه فأشار بيده إلى مَن تبقى بالقاعة آمرًا:

- أتركونا وحدنا.

تحرك الجميع على الفور امتثالًا لأوامر الملك، انتظرلحظات حتى خليت القاعة تمامًا واتجه بنظره نحو كبير الكهنة قائلًا:

- ها قد أصبحنا وحدنا.

تردد كبير الكهنة لوهلة قصيرة ثم قال:

- الحق يا مولاي أن ما لدي سيكدر خاطرك أنت.. لكن عليّ القول أن ما لدي لا يعدو كونه مشاهدات وأقاويل تتسلل من خلف الجدران لا ترتقي لحقيقة ملموسة يُتخَذ بها إجراء.

أثارت كلماته الملتوية حفيظة الملك (واح إيب رع) وغضبه قدر ما أثارت قلقه فقال بغضب:

- أفصح عما بداخلك على الفور أيها العجوز دون مواربة.

تحدث كبير الكهنة بسرعة:

- لدي كثير من الشكوك تحوم حول السيد (أمازيس) قائد الجيش، يبدو أنه يستغل الشقاق الواقع بين الجند المصريين والجند اليونانيين ويسعى

لاستغلال الثورة المتأججة في قلوب بعض القادة المصريين لخدمة مصالحه الشخصية.

اكفهرت ملامح (واح إيب رع) فور سماعه تلك الكلمات، وزوى ما بين حاجبيه متسائلًا بحذر:

- وما هي مصالحه الشخصية؟

ارتج على الكاهن الذي كان يخشى إثارة المزيد من غضب الملك لكنه لم يجد بدًا من أن يُجيب:

- إنه يسعى إلى السلطة يا مولاي.. يسعى نحو عرشك أنت.

استشاط (واح إيب رع) غضبًا وهبّ صارخًا:

- ماذا تقول؟ هل جُن (أمازيس) كي يقدم على هذه الفعلة أو حتى يتجرأ على التفكير فيها.

رفع كبير الكهنة يده أمام وجهه وقال بسرعة مهدئًا ثورة الملك:

- لم يثبت الأمر بعد يا مولاي، وكما قلت لك منذ البداية إن هي إلا مجرد مشاهدات وعلامات استفهام نسجت خيوطها حول تصرفات قائد الجيش في الفترة الأخيرة.

تنفس الملك بصوتٍ مسموع وحاول قدر المستطاع كظم غضبه ثم أشار بيده القابضة على صولجان الفلك نحو الكاهن:

- هذا اتهام خطير يا كبير الكهنة، لا يمكن البت فيه من خلال أقاويل ومشاهدات، بل يجب أن تكون هناك حقائق مؤكدة لا تقبل الدحض أو الجدل قبل أن نُحدِث فتنة في صفوف الجيش المنقسم على نفسه بما

يكفي.

- إذن لنبقي الأمور هادئة كما هي إلى أن تظهر دلائل قاطعة.

هز الملك رأسه نفيًا:

- هذا الحل أيضًا غير مقبول.. (أمازيس) رجل شديد الحنكة والحذر كما أنه مداهن بطبعه، لا يمكنك معرفة ما يدور في قرارة نفسه إلا إذا سمح هو لك بذلك.

تحير الكاهن في ما يفكر به الملك فقال:

- مولاي يرى ما لا يمكنني رؤيته.

قال الملك في حسم:

- لا يمكننا انتظار دلائل بينما المتآمرون يتمكنون مناويقتربون كالضباع الجائعة نحو القصر، لذلك أريد من بعض خلصائك الثقات أن يتقصوا الحقيقة ويأتوا لنا بالبرهان، بينما نأخذ نحن حذرنا ريثما نتيقن من تفاصيل هذه المؤامرة.

قالها فانحنى كبير الكهنة باحترام وتبجيل، بينما (واح إيب رع) يتمتم بغضب مكبوت:

- أقسم يا (أمازيس) أن أفصل رأسك عن جسدك إن كان ما يُشاع عنك هو الحق.

قالها وأخذ يفكر بعمق، بعد أن ثقُل قلبه بهمٍ كان يحمله الكاهن منذ لحظات. انقشع الظلام فجأة حين امتدت يد قوية حازمة نزعت الغطاء الثقيل الذي كان يغطي وجهه المدمّم الممتلئ بالكدمات، أغلق القصير عينيه في ألم اتقاءً لضوء ساطع غشيهما فجأة قبل أن يتنبه على صوت

صارم يقول:

- لم يكن من الممكن أن يتأخر لقاءنا أكثر من ذلك.

وضع القصير كفه كمظلّة على عينيه، فتحهما ببطء وحذر لترتسم ابتسامة باهتة على ركن فمه وهو يقول ساخرًا:

- وأنا مَن ظننت أنني وقعت بين يدي مليككم ورجاله.

قالها وهو يُحدِّق في (أمازيس) الواقف أمامه باعتداد والذي ما أن سمع جملته حتى صرخ بغضب:

- كلنا رجال الملك وحماة المملكة أيها الوغد.

كانت عينا القصير قد اعتادت الضوء، خفض يده وضحك ملئ شدقيه قبل أن يبصق ما في فمه من دماء ويقول:

- حقًا.. وماذا كان سيصير مآل الملك لو كان ما تخططون له قد تم.

ردد (أمازيس) مبهوتًا:

- ما نخطط له.

ثم ازدادت ملامحه جهامة وهو يقول:

- كفّ عن سخافتك يا هذا واستمع إليّ جيدًا، أنا وحدي هنا مَن سيلقي الأسئلة وأنت فقط مَن ستجاوب.

ورفع إصبعه أمام وجهه وهو يقول محذرًا:

- لكن حذار أن تكذب ولو في حرف واحد.

تساءل القصير باستخفاف:

- عن أي شيء يريد القائد أن يسألني؟!

- ما سبب زيارتك الليلية المتأخرة لمعبد الكاهن (ددف رع)؟ وما هي علاقتك به من الأساس؟

- ولِم لم تسأل الكاهن شخصيًا هذه الأسئلة؟

ثم أكمل بخبث:

- خاصة وأن علاقتك به وطيدة كما يبدو لي.

صاح (أمازيس) بغضب هادر:

- دعك من ألعابك اللفظية الرخيصة التي لن تؤتي ثمارها معي أبدًا وتحدث مباشرة عن مَن أرسلك للكاهن (ددف رع) في معبده.

قال القصير بهدوء وكأنه هو مَن يسيطر على مقاليد الموقف:

- هوِّن عليك أيها القائد (أمازيس)، فأنت تعلم مسبقًا إجابة أسئلتك.

- لكنني أريد أن أسمعها تجري على لسانك.

ثم أشار بطرف عينه إلى أحد رجاله الذي استل من ملابسه خنجر ضخم قرّبه من وجه القصير لإرهابه قبل أن يضعه في النار و(أمازيس) يستطرد:

- لن يمر الكثير من الوقت حتى تنحل عقدة لسانك وتنهال الأجوبة من فمك القذر.

قال القصير بثبات:

- أهذا ما تظنه؟ يبدو أنك لا تعلم حقًا مَن نحن وما نحن قادرون على فعله وتحمّله، في بلادي نفضّل الموت على إفشاء الأسرار أو خيانة قادتنا وهذا

أمر لا يقدره أمثالك.

لم يهتم (أمازيس) بعبارات الفخر والسخرية والتلميح المبطن التي انسالت على لسان القصير، قدر توقفه عند كلمة واحدة صعقته وشلّت تفكيره كله..

(في بلاده).

قلبت تلك الكلمة كل ما كان يدور في ذهنه رأسًا على عقب، بعدما كان يظن أن (ددف رع) سيغدر به، ويُفشي سره إلى الملك (واح إيب رع) وكبير الكهنة، وأن هذا الرجل القصير أحد أتباعه الذين ينقلون أخباره إلى الملك، يقع على هذه المعلومة التي غيّرت مجرى تفكيره تمامًا..

- لا جدوى من كل ما تفعله أيها القائد، نحن نسير في هذا الطريق معًا.

ظلّ (أمازيس) على صمته لبرهة رتّب فيها أفكاره، ثم اقترب ببطء من القصير وقرّب وجهه منه قائلًا وهو يضغط على كل حرف من حروف كلماته:

- حدثني عن بلدك يا هذا كي نسلك طريقنا معًا.

توترت ملامح القصير وارتعش ركن فمه في غضب بعدما تيقن أن زلة لسانه أوردته مورد التهلكة فقال بتوتر:

- لن تحصل مني على حرف واحد.

حان دور (أمازيس) ليقول بسخرية:

- حقًا.

ثم نظر إلى تابعه الذي التقط الخنجر بعد أن أصبح أحمر اللون، ملتهبًا كجمر النار، ناوله إياه فقبض عليه بقوة وقرّبه من القصير حتى لامس

وجهه، انبعث صوتًا مقززًا مقرونًا بدخان اللحم المحترق، والقصير يصرخ بقوة شديدة حتى كادت أحباله الصوتية على التمزق، عندها ابتسم (أمازيس):

- تحمّل كسائر رجال بلادك، أو تكلم وانجو بنفسك من هذا العذاب.

- لن أتكلم مهما فعلت، أنت ستقتلني على أيّة حال.

- قد تحظى بميتة سريعة غير مؤلمة، أو تتذوق صنوف العذاب حتى تتمنى الموت قبل أن تلقاه.

نظر له القصير بصمت والألم يرتسم بجلاء على ملامحه فتابع (أمازيس):

- أو أطلق سراحك لتعود من حيث أتيت إلى غير رجعة، فلا أحد غيري رآك ولن تعود لي حاجة بك بعدها.

تحوّلت ملامح القصير إلى الشك فقال (أمازيس):

- يبدو أنك تحتاج لما ينعش عقلك كي تُحسن التفكير.

قالها وقبض على يد القصير، وبنفس الخنجر جز سبابته من مكانها، نفر الدم أمام عينيه، وتصاعدت صرخاته مجددًا حتى صمّت الآذان، قبل أن يصمت تمامًا بعد أن سقطت رأسه بين كتفيه مغشيًا عليه.. عندها ناول (أمازيس) الخنجر لتابعه قائلًا في صرامة:

- عالج جراحه النازفة واعمل على أن يستفيق سريعًا، فلم نحصل على غايتنا منه بعد.

ثم استدار مغادرًا المكان بأكمله وهو يدبّر في قرارة نفسه ما سيخطوه من خطوات قادمة.

(17)

لم تكن رحلتهما منذ لحظة بدايتها سهلة أبدًا.. كانا يعلمان علم اليقين أنهما مطاردان وعليهما حساب كل خطوة يخطونها بحذرٍ شديد. (يوسف) ملاحَق من قِبَل جهات الأمن، لن تتقبل هروبه بسهولة ويسر، لن يتركوه بطبيعة الحال، سيطاردونه بشراسة أينما حلّ.. كان بداخلهما يقين آخر، أن هذه ليست أسوأ أزماتهما، بل أن هناك جهة أخرى خفية تتوارى بعيدًا عن الأنظار، ستشارك وبعنف في تلك المطاردة.. جهة أكثر قسوة ووحشية، ستطلق خلفهما كلابها الضارية بعد أن قتلت بلا رحمة وبدمٍ بارد أحب الناس إليهما. لذلك كان حذرهما شديدًا وهما يختبران ربما لأول مرة في حياتهما إحساس فقد الأمان بهذا الشكل.. أن تسير في الطرقات وأنت تتوارى عن الأنظار.. أن تتطلع في عيون الجالسين من حولك برهبة ووجل، تخشى حتى التقاء العين بالعين.. أن تتقوقع داخل نفسك كالسلحفاة جزّاء كلمة تساؤل أو نظرة مستريب.

كانت رحلة مرهقة مضنية قطعاها بمشقة بالغة إلى أن وصلا حيث أراد لهما موجههما الغامض منذ اللحظة الأولى.

تطلعت (سماح) إلى القفر من حولها في وجل، قالت وهي ترتجف بردًا وخوفًا:

- أشعر بالتوجس من تواجدنا في هذا المكان المقفر.

كان التوتر ينهش قلب (يوسف) بضراوة وهو يقول:

- لقد التزمنا بخط السير الذي حدده دكتور (عزيز).. لم يكن بيدنا حيلة.

تساءلت بتوتر:

- وماذا الآن؟ هل ننتظر؟!

أجاب وعيناه تدوران في أرجاء المكان:

- ريثما يجّد جديد.

بقيا لدقائق في موضعهما ولا شيء حولهما سوى الصمت،الليل ورياح تُصَفِّر في أذنيهما، رياح تغتصب رمال الأرض من مرقدها لتذروها بلا هوادة كي ترتطم بوجهيهما بعنف.. دقائق مرّت ما زادتهما إلا قلقًا وتوترًا ورغبة عارمة في الرحيل عن هذا المكان الموحش، حتى أتى طوق الخلاص عن طريق مكالمة تليفونية أتت على هاتف دكتور (فاروق) الجوال.. وسيلة التواصل الوحيدة مع دكتور (عزيز)، ذلك الصديق الغامض.

التقطت (سماح) الهاتف بسرعة، وضعته على أذنها بعد أن ضغطت أيقونة قبول تلقي المكالمة:

- تقدمي إلى نهاية الطريق ثم انعطفي جهة اليمين حتى تصلي إلى التقاطع، عند هذه النقطة ستجدي سيارة سوداء اللون تنتظرك، استقليها على الفور ودون إضاعة ثانية واحدة.

انتهى من حديثه بنبرات سريعة وأنهى المكالمة على الفور، لم يكن أمام الاثنين سوى تنفيذ ما طلبه حرفيًا بعد أن وصلا إلى هذه النقطة، لم يعد بيد أي من هما القدرة على التراجع أو حتى طرح الأمر للحظة واحدة بينه وبين نفسه. تراءت لهما السيارة من بعيد رابضة في مكانها، أنوارها مطفأة تنتظرهما في سكون.

وصلا إليها واستقلاها، فتحركت بهما سريعًا.. يقودها شاب حديث السن لم يتبادل معهما كلمة واحدة، طوال الطريق وهو مصوّب نظرة إلى الأمام وهما يتابعانه من الخلف بحذر شديد، استمرت السيارة في طريقها حتى

خرجت خارج حدود مدينة القاهرة وبدا الطريق الصحراوي ممتدًا أمامهما، أثار ذلك نوازع الريبة أكثر وأكثر داخل نفس (يوسف)، فبادر متسائلًا بتوتر:

- إلى أين سنذهب؟

لم يتلق إجابة من الشاب الذي ظل ثابتًا في مكانه محدقًا نحو الأمام حتى خُيّل إليه أنه لم يسمعه من الأساس، أعاد السؤال مرة أخرى ليتلق الصمت إجابة من جديد، تبادل نظرات صامتة قلقة مع (سماح) التي غلب خوفها خجلها فمدت يدها تقبض على يده في قوة، تستمد منه الأمان والطمأنينة.

قطعت السيارة ما يقرب من ساعة كاملة على الطريق الرئيسي حتى وصلت إلى مدخل جهة اليمين يقود إلى طريق فرعي طويل، أدار الشاب مقودها لتخوض طريقها عبره، حتى وصلوا إلى بوابة حديدية كبيرة فوقها لافتة تحمل اسم مزرعة خاصة.

هبطا من السيارة وسارا خلف الشاب، بدا أنه يعرف طريقه جيدًا وإن بقي على صمته المستفز حتى أوصلهما إلى غرفة صغيرة ملحقة بالمبنى الوحيد الموجود بداخل المزرعة.. كانت غرفة مؤثثة بعناية.. غاية في الترتيب والأناقة، يفترشها سجاد باهظ الثمن، من السقف تدلت ثريا فاخرة من الكريستال النقي، بينهما مكتب ومقاعد من الخشب المشغول بحرفة عالية، كما اصطفت على جدارها عشرات من الكتب داخل مكتبة أنيقة.. كانت الغرفة بأكملها تشي بثراء وذوق صاحبها فوقفا يديران بصرهما في أرجائها وقد ألجم لسانيهما.

أمهلهما الشاب وهلة قبل أن يتحدث أخيرًا قائلًا بهدوء:

- انتظرا هنا.

نطق جملته وغادر مغلقًا الباب خلفه ليتحرر لسان (سماح) قائلة بعصبية:

- كيف سمحنا له أن يقودنا إلى هنا بتلك السهولة؟ ما أدرانا أنه ليس معهم؟!

تساءل قائلًا:

- مَن تقصدين؟

أجابت بعصبية أشد:

- مَن نسعى خلفهم ويسعون خلفنا.. مَن قتلوا والدي وألصقوا بك التهمة.

قال بنبرات هادئة في محاولة لتهدئة أعصابها الثائرة:

- لقد تتبعنا الخيط الوحيد الذي بيدنا.

هزّت رأسها رافضةً قوله فأكمل:

- إما هذا أو كنا سنبقى حبيسي شقتكما الصغيرة إلى الأبد.

أنهى جملته ثم استدار مواجهًا باب فُتح على وجه تذكره (يوسف) من النظرة الأولى، شعره الفضي الأشيب، ملامحه الهادئة وعويناته الطبية التي أضافت مع لحيته الكثة لسني عمره مزيدًا من الوقار:

- دكتور (عزيز).

دلف هذا الأخير إلى الغرفة ووقف أمامهما بهدوء، دون أن يندهش من تواجد (يوسف)، قبل أن تتوقف عيناه على وجه (سماح) قائلًا:

- رحم الله والدك يا بنيتي، إنك شديدة الشبه به.

ظلّت (سماح) صامتة تتطلع إليه بملامح جامدة فابتسم ابتسامة خفيفة

وهو يقول:

- أعلم أن بداخلكما كثير من الشك وعلى محياكما الكثير من الأسئلة، لكن أولًا دعاني أعتذر عن طريقة إحضاركما إلى هنا، لكنكما تعرفان بكل تأكيد خطورة ما نخوض غماره معًا.

هنا قال (يوسف) مقاطعًا:

- إننا لم نهتدي سوى لمجموعة من الألغاز قادتنا إلى هنا.

رفع (عزيز) يده أمام وجهه قائلًا:

- أنا هنا لأجيب على ما يعتمل في رأسيكما من أسئلة على قدر استطاعتي لأتمم عهدي ل(فاروق) رحمه الله.

- لنبدأ إذن من البداية الصحيحة.

قالتها (سماح) بصرامة، نظر (عزيز) إليها متسائلًا فأردفت:

- مَن أنت؟

- أنا (عبد العزيز مطاوع)، صاحب هذه المزرعة وصديق والدك منذ الصبا حتى فرقتنا الحياة فتخيّر كل منا مجاله.. عشق والدك دراسة الآثار والتاريخ، بينما كان اتجاهي أنا دراسة علوم الطبيعة والفيزياء التطبيقية، ويبدو أن اختياراتنا كانت موفقة فحصل كلانا على درجة الدكتوراه.

قاطعته (سماح) متسائلة بريبة:

- لكنني لم أرك ولو مرة واحدة مع والدي، كيف تصف نفسك بصديقه المقرّب؟!

أجابها بلهجة متسامحة:

- كما قلت لكِ، انغمس كل منا في مجاله، بقيت أنا خارج مصر للحصول على درجة الدكتوراه ثم العمل.. مما أبعدنا عن بعضنا لسنوات تكاد تعادل سني عمرك، حتى وصلتني فجأة رسالة غامضة منه.

غمغم (يوسف) بدهشة:

- ما بال الدكتور (فاروق) والرسائل الغامضة؟!

رغمًا عنها ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه (سماح) من أثر كلماته، لم تلبث أن تلاشت سريعًا وهي تسأل بجدية:

- ماذا تقصد برسالة غامضة؟!

قلّب شفتيه وهو يهز رأسه مُجيبًا:

- كانت رسالة قصيرة لم تحو الكثير لكنها مليئة بالتوتر دفعتني للقلق عليه، حتى دعاني للحضور إلى القاهرة في إجازة قصيرة.

- تلك التي رأيتك بها معه في المكتب.

قال (يوسف) مقاطعًا، فأومأ (عزيز) برأسه وهو يقول:

- نعم.. وقتها تأكدت ظنوني وقلقي عليه حين أخبرني بما يمر به من أحداث جسيمة.

ظهرت اللهفة على ملامحهما ترقبًا لما سيدلي به، تنهّد وهو يتحرك باتجاه المكتب قائلًا:

- إنها رواية طويلة لذا من الأفضل أن نجلس.

أطاعاه وجلسوا سويًا حول المكتب، فبدأ في سرد روايته:

- بدأ الأمر منذ سنتين حين كان (فاروق) في مهمة بحثية تابعة لوزارة

الآثار في قرية صالحجر بمحافظة الغربية، هناك كلّل جهوده التي استمرت لسنوات بتكتشاف أثري مهم، عثر هو وفريقه وقتها على مقبرة القائد (نفر رع)، قائد الحرس الملكي وأحد قادة الجيش المقربين من الفرعون (واح إيب رع).. فرعون الأسرة السادسة والعشرون.. كاملة محفوظة كما هي، لم تطأها قدم ولم تطالها أيدي اللصوص، بما تحويه من كنوز أثرية غاية في الأهمية والقيمة، هذا بالإضافة إلى المومياء نفسها.. لكن ما صعق (فاروق) وقتها وجعل قيمة الكشف الأثري تتضاعف ألف مرة عن قيمة اكتشاف مقبرة فرعونية، هي بردية عثر عليها ضمن مقتنيات القائد (نفر رع).. بردية تحدّد بدقة المكان السري الذي نُقل إليه وأخفي به تابوت العهد.

هنا قفز (يوسف) من مكانه صائحًا:

- تابوت العهد!!

حدّقت به (سماح) بدهشة بالغة، بينما تبسم (عزيز) بهدوء وقد توقع ردة فعل الأخير ثم قال:

- نعم يا (يوسف).. تابوت العهد.

استعاد (يوسف) رباطة جأشه فجلس مرة أخرى وهو يتمتم:

- أمرٌ لا يصَدَق.

- بكل تأكيد.. وهذا ما دفع (فاروق) لمزيد من البحث والدراسة حول أصالة هذه البردية وصدق ما تحويه من معلومات، خاصةً وهو كان يعلم أن بمجرد الإعلان عنها ستحدث ضجة هائلة على مستوى العالم أجمع.. ضجة من شأنها قلب الموازيين كلها رأسًا على عقب.

لوّحت (سماح) بيدها قائلة:

- لحظة من فضلكما، ربما كان الأمر واضحًا بالنسبة إليكما، لكنه مستغلق على فهمي أنا.. ما هذا التابوت؟ وما هي قيمته حتى يُحدِث اكتشافه ضجة على مستوى العالم كما تقول؟

أجاب (عزيز) موضحًا:

- لقد كان الأمر غامضًا أيضًا بالنسبة إليّ في البداية، ذلك بحُكم تخصصي وبُعدي عن مجال الأبحاث والدراسات التاريخية، لكن بعدما شرح لي (فاروق) رحمه الله نبذة عن الموضوع ومدى خطورته وخطورة تبعاته، حتى بدأت في الاستزادة والقراءة عنه بشكل أعمق، ورويدًا رويدًا اتضحت لي الصورة كاملة.

ثم نظر إلى (يوسف) قائلًا:

- ربما (يوسف) بإمكانه إخبارك بشكل أفضل عن ماهية تابوت العهد ومدى قيمته التاريخية، فهو الأجدر على هذا.

تنحنح (يوسف) واعتدل في جلسته بعدما توجهت أنظار (سماح) له ثم بدأ في الشرح قائلًا:

- تابوت عهد الرب، أو تابوت السكينة، أو تابوت الشهادة، كلها مسميات لشيء واحد هو التابوت المقدّس لدى بني إسرائيل.. ذلك التابوت الذي حُفِظت به ألواح العهد وفقًا للتراث اليهودي، وقد أتى ذكر تابوت العهد في الكتب السماوية والعديد من كتب السلف، حتى أنه قد ذُكِر في القرآن الكريم وبالتحديد في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. كما قيل في كتب العهد القديم أنه كان مصنوعًا من السنط، ومطلي بالذهب من طرفيه

الخارجي والداخلي، ويوصف حجمه بأن طوله ذراعين ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف، وكان التابوت محمولًا على مساند من خشب السنط المذهبة، المعشّقة في حلقات ذهبية مصبوبة بجانب التابوت، ونقش لاثنين من الملائكة الكروبيون (حملة العرش) فوق قمته، أما غطاء الصندوق فكان يسمى غطاء التكفير أو مقعد الرحمة، ويحتوي التابوت على لوحين حجريين نُقشت عليهما الوصايا العشر لبني إسرائيل بالإضافة إلى عصا سيدنا موسى عليه السلام- تلك العصا التي تحولت إلى حية عملاقة التهمت ثعابين سحرة فرعون وشقّت البحر في رحلة الخروج، كما فجّرت بعدها الاثنتا عشر عينًا من أرض سيناء.

تساءلت (سماح) بدهشة:

- إذن التابوت حقيقي، فلماذا ظلّ خفيًا طوال تلك السنوات؟!

مطّ (يوسف) شفتيه وهو يُجيب:

- هذا ما لا نملك له إجابة إلى الآن.

قال (عزيز) كي لا يُوقف استرسال الأخير:

- ما زالت القصة لم تنتهي بعد.

ثم أشار إلى (يوسف) بيده:

- نعود إلى مسيرة التابوت مع بني إسرائيل.

أكمل (يوسف) الحكاية:

- كان التابوت شديد الأهمية والقداسة لدى بني إسرائيل، كان يُوضَع في خيمة الاجتماع أثناء رحلة الخروج إلى أرض كنعان، كانوا يحافظون عليه بأرواحهم، كيف لا وهو دلالة على إيمانهم وقربهم من الله- حتى أصابهم

كل ما يُصيب مَن ضلّ الطريق إلى الخالق عزّ وجلّ من ضعف وهوان، فتم سبيه والاستيلاء عليه من بينهم، إلى أن عاد مرةً أخرى محمولًا على أجنحة الملائكة برهانًا من ربهم وآية على مُلك طالوت عليه السلام عليهم، إلى أن أتى سيدنا داوود عليه السلام فأسس مملكة بني إسرائيل بعد هزيمة جالوت وجيوشه، ومن بعده ولده سيدنا سليمان عليه السلام الذي شيّد الهيكل الكبير في أورشليم ووضع التابوت بداخله في مكان مميّز كان بالنسبة إليهم قدس الأقداس.

تدخّل (عزيز) في الحوار قائلًا:

- إلى هنا كان موضع التابوت معلومًا.. لكن ما حدث بعد ذلك كان بداية اللعنة.

تساءلت (سماح) بلهفة:

- ماذا حدث بعد ذلك؟

مرة أخرى أشار (عزيز) بيده ل(يوسف) أن يُكمل فاسترسل الأخير:

- توالت الخطوب على مُلك بني إسرائيل، زادت حِدّة النزاعات بينهم فتم تقسيم المملكة إلى مملكتين.. مملكة إسرائيل في الشمال ومملكة يهوذا حيث الهيكل الكبير في الجنوب، ودبّ الضعف أكثر وأكثر في أوصال بني إسرائيلي حتى هان أمرهم فتلاشت مملكة إسرائيل من الوجود، ورزحت مملكة يهوذا تحت نير الحصار من قِبَل جيوش البابليين وملكهم (نبوخذ نصر الثاني)، فدُمّرت المملكة وأحرِق الهيكل المقدّس وتم سبي الآلاف من بني إسرائيل وعلى رأسهم (صدقيا) ملك مملكة يهوذا وأسرته الذين قُتلوا شر قتلة، فيما عُرِف عبر التاريخ بالسبي البابلي.

قاطع (عزيز) الحوار مجددًا:

- لكن لم يأت ذِكر التابوت في أيّ من غنائم البابليين من تلك الحرب على كثرتها.

تساءلت (سماح) بدهشة:

- كيف وهو أهم ما يمتلك بنو إسرائيل؟!

أجاب (يوسف) بسرعة:

- هذا بيت القصيد.. والأعجب أنه بعد عديد السنوات، حين انتصر (كورش) ملك الفرس على البابليين، وبعد أن أعاد لبني إسرائيل مُلكهم على أورشليم وتم تشييد الهيكل الثاني، لم يتم ذِكر إعادة التابوت المقدّس إلى موضعه.

لوّحت بيدها قائلة:

- هذا معناه إنه لم يُعثَر عليه من الأساس.

أومأ (يوسف) برأسه قائلًا:

- بالضبط.

زوت (سماح) ما بين حاجبيها متسائلة بحيرة:

- وأين الحقيقة من كل هذا؟

التقط (يوسف) نفسًا عميقًا زفره بقوة قبل أن يُجيب:

- في هذا الشأن تعددت الروايات حتى ضاع الحق فيغياهب الباطل، لا توجد حقيقة مؤكدة إلى الآن، وكل ما وصل إلينا هي مجرد روايات

وأساطير لا يوجد عليها دليل واحد يُثبت صحتها.

- مثل ماذا؟!

- على سبيل المثال هناك رواية أن التابوت قد حُفِظ أسفل قدس الأقداس في الهيكل على عمقٍ كبير وغُطيَ هذا المكان بحجرٍ ضخم وأن الملك (ياشياهو) وضعه في ذات الموضع الذي وضعه به سيدنا سليمان عليه السلام حين قام بتشييد الهيكل كما ذُكِر في التلمود البابلي والتلمود الأورشليمي، وفي رواية أخرى أنه وُضِع في فجوة داخل مكان كان يُعرف بديوان الأحجار.. تلك هي الروايات التي افترضت وجود التابوت داخل القدس، لكن هناك فرضيات أخرى أولها طبقًا لما جاء في كتاب الحشمونائيم حيث كُتِب أن (إرميا النبي) خبأ التابوت في مغارة وجدها في جبل نيبو أو جبل موسى إبان فترة خراب الهيكل الأول، الثانية تقول أن التابوت تم تهريبه أيام الملك (منشيه) ملك مملكة يهوذا من أورشليم إلى مصر، حتى وصل إلى مكان يسمى بئر الأرواح ومنه إلى جزيرة الفنتين، وهي جزيرة صغيرة تقع على نهر النيل قرب أسوان، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة أكسوم في أثيوبيا، حيث تم حفظه بحرص أسفل غطاء سري ثقيل في كنيسة مريم من صهيون.

انتهى (يوسف) من روايته فلوّح بيده مستطردًا:

- لكن كما قلت، إن هي إلا مزاعم وأساطير لم تثبت صحتها إلى الآن.

غمغمت (سماح):

- هذا يعني أنه إلى الآن الحقيقة غائبة.

هز (عزيز) رأسه نفيًا ثم قال:

- الحقيقة وجدها والدك في مقبرة (نفر رع).

نظرت إليه قائلة:

- حين عثر على البردية.

أومأ برأسه إيجابًا وهو يغمغم:

- بالضبط.

هزّت (سماح) رأسها يمينًا ويسارًا في غير تصديق وهي تقول:

- معذرة يا دكتور (عزيز)، لكنك ذكرت أن والدي عثر على تلك البردية منذ سنتين، كيف لم يأت على ذكرها ولو لمرة واحدة طوال تلك الفترة وهو الذي لم يعتد على إخفاء أي شيء عني طوال حياته.

- هذا أمر منطقي، والدك كان يخشى عليك من تبعاتومخاطر هذا الأمر أشد الخشية، لذلك حرص على أن تكوني بعيدة تمامًا عنه، ولذلك أيضًا وافق بل سعى بنفسه لأن تُكملي دراستك بالخارج كي تكوني خارج الصورة بأكملها.

سرحت (سماح) بذهنها بعيدًا وهي تتذكر تلك الفترة، حين كانت تُلّح على والدها بشدّة في السفر وهو يعارضها، يرفض لرغبته في بقائها بجانبه وخوفًا عليها من معيشتها بمفردها في أرض غريبة بعيدًا عنه.. لكن المدهش هو كيف تغير رأيه بسرعة، تحوّل من النقيض إلى النقيض وأنهى بنفسه وعلى وجه السرعة إجراءات سفرها إلى الخارج..

رباه! كيف لم تنتبه إلى ذلك! كيف لم تشعر بمدى المرارةالتي شعر بها وقتها وهو يودعها والدموع تتلألأ في عينيه.

أفاقت من شرودها وذكرياتها على صوت (يوسف) يقول بدهشة:

- أنا أيضًا لم أعلم شيئًا عن هذا الأمر لم يتحدث دكتور (فاروق) عنه أبدًا طوال فترة عملنا معًا رغم قربي منه ووطادة علاقتي به، حتى عندما وجدت ذلك البحث عن الهيكل المقدّس على مكتبه بالصدفة، تعجبت للحظات ثم تناسيت الأمر برمته، لم يدر بخلدي أبدًا أن تكون الحقيقة على هذا النحو.

قال (عزيز) في تقرير مؤكدًا على كلامه:

- لقد أحاط رحمه الله هذا الأمر بإطار من السرية حتى عن أقرب الناس إليه.

- وأين تلك البردية الآن؟

قلّب (عزيز) يديه في حيرة وهو يُجيب:

- هذا ما لا أعرف عنه أي شيء.

- وهؤلاء الذين يطاردوننا.. مَن هم؟ ما هو دورهم بالضبط؟!

- إجابة هذا السؤال تحتاج لرواية قصة أخرى.. قصة حدثت بعد أن عثر (فاروق) على تلك البردية.. في ذلك الوقت كانت الأوضاع غير مستقرة في الوزارة إثر قرار بإعادة الهيكلة وتغيير عدد كبير من القيادات، الكل منشغل بما يحدث وما سيحدث، (فاروق) كما أسلفت أخفي حقيقة البردية ولم يُعلن عنها حتى يتأكد من أصالتها وصحة ما بها من معلومات قبل الإعلان عن هذا الكشف العظيم، في تلك الأثناء تواصلت معه جهة خارجية، عبارة عن منظمة دولية ذات تمويل خاص، تهتم بمجال الاكتشافات الأثرية، تعرض التعاون والمشاركة في البحث.

قاطعته (سماح) متسائلة:

- كيف عَلِمت تلك المنظمة بشأن البردية؟!

- عَلِمت عنها عن طريق أحد معاوني (فاروق) ويدعى (شوقي الدريني)، هو مَن شاركه في رحلة البحث الطويلة حتى لحظة الكشف الأثري، وهو أيضًا الفرد الوحيد ضمن الفريق البحثي الذي كان يعلم بشأن البردية، لكنه كان على النقيض من (فاروق) لا يهتم بقيمة الكشف الأثري قدر اهتمامه بما يمكن أن يدُر من أموال.. (شوقي) هذا كان حلقة الوصل بين (فاروق) وتلك المنظمة، سعى كثيرًا خلف هذا الأخير من أجل أن يقبل بالتعاون معهم رغم رفضه المتكرر.

قاطعته (سماح) مرةً أخرى متسائلة:

- وما الذي دفع والدي لقبول العمل معهم؟!

هز (عزيز) رأسه في حيرة وهو يُجيب:

- لست أدري.. ربما قلّة الموارد أو تهديدات تعرّض لها جعلته يقبل على مضض، لكن ما أعرفه عن لسانه هو شخصيًا، أنه قَبِل مرغمًا التعاون معهم بعد إلحاحٍ شديد.

تساءل (يوسف) هذه المرة بدهشة:

- لو كان الأمر كذلك.. ولو كان قد قَبِل بالفعل التعاونمعهم كما تقول، لِم انقلبوا عليه للدرجة التي تدفعهم لقتله بهذه القسوة؟!

لوّح (عزيز) بسبابته أمام وجهه وهو يُجيبه:

- لأنه اكتشف لاحقًا أنهم مخادعون، وأن تلك المنظمة تتبع بشكل غير مباشر جهة أخرى ذات علاقة وثيقة بالإسرائيليين، عندها تهرّب منهم وعمِد

إلى إخفاء النتائج التي تحصّل عليها، فبدورهم لاحقوه بضراوة إلى أن حانت نهايته.

تمتمت (سماح) من بين أسنانها بغضب:

- اللعنة عليهم.

نظر لها (عزيز) بإشفاق واستطرد:

- لقد أخفى (فاروق) أثر البردية ونتائج أبحاثه ببراعة،إلى الآن هُم يسعون خلف أي طرف خيط يقودهم إليها، لذلك يطاردونكم.

غمغم (يوسف) بدهشة:

- يعتقدون أننا نعلم مكانها.

أومأ (عزيز) برأسه إيجابًا وهو يقول مؤمنًا:

- بالضبط.

مسحت (سماح) على جبهتها براحة يدها وهي تقول بعد تفكير:

- لكن أبي لم يُعلمنا بمكانها، فكيف السبيل إليها الآن؟وكيف نتّقي شرّهم ونثبت تورطهم في عملية اغتياله؟

وقال (يوسف):

- إن براءتي تتوقف على العثور على تلك البردية حتى أثبت علاقتهم المباشرة بالدكتور (فاروق).

قال (عزيز) بتفهُّم:

- كل هذه الأسئلة منطقية ولكما الحق في طرحها، لكنني أخبرتكما بكل ما

لدي من معلومات.

قالت (سماح) بضيق:

- معنى هذا أننا سنسير مجددًا كالعميان ما تبقى لنا من طريق.

وقال (يوسف) بأسى:

- لقد كنت آخر أمل لنا يا دكتور.

قال (عزيز) بنبرة اعتذار:

- معذرة إن كنت قد خيبت ظنكما.. لكنني طرحت كل ما لدي بالفعل.

قبل أن يستدرك قائلًا:

- باستثناء أمر أخير.

ظهرت أمارات اللهفة وبذور الأمل مجددًا على وجهيهما فقال متابعًا:

- رسالة تركها (فاروق) أمانة في عهدتي، أوصاني أن أسلمها لأصحابها حين يأتون إليّ.

قرن قوله بأن فتح دُرجًا صغيرًا وأخرج منه مظروف مغلق ناوله ل(سماح)، التقطته في دهشة بالغة وهي تنظر ل(يوسف) مغمغمة:

- مظروف آخر!

تنهّد (عزيز) بارتياح:

- الآن أكون قد أتممت مهمتي وأديت الأمانة.

فضّت (سماح) المظروف والتقطت الرسالة من داخله لتطالعها بلهفة، بينما (يوسف) يتابع عيناها وهما تضيقان تدريجيًا في تركيز مما حدا به

أن يسألها بقلق:

- ماذا هناك؟

حدّقت به لبرهة قبل أن تدير الورقة في يدها لتصبح أمام مرمى بصره، طالعها بسرعة خاطفة في شغف ثم قال في تعجب:

- ما هذا؟ أهو لغزٌ جديد؟!

قرأت (سماح) الكلمات الموجزة في الرسالة القصيرة:

"بداية حياتك ربما يمهدها وفاتي..

إلى (سماح فاروق)".

رفعت عينيها مرة أخرى متسائلة:

- ما معنى هذا الكلام؟!

ظهرت ملامح الحيرة على وجه كل من (يوسف) و(عزيز) والأول يقول:

- الأمر يزداد غموضًا.

تدخّل (عزيز) فالحوار قائلًا:

- ربما حاول (فاروق) ترك تلك الرسالة لكِ ليخفف وقع صدمة وفاته عليك.

- ولماذا لم يرسلها لي مباشرةً؟!

قلّب شفتيه في حيرة ولم يعقّب، بينما قال (يوسف) الذي كان مستغرقًا في التفكير:

- أعتقد أن هناك معاني مستترة خلف تلك الكلمات، تمامًاكما هو الحال مع

الرسالة التي أرسلها إليّ سابقًا.

قال (عزيز) متسائلًا:

- وكيف نحل تلك الألغاز؟

- بأن نفك شفرتها.

قالتها (سماح) بحماس وهي تضع الخطاب على المكتب أمامها وتتمعن في كلماته بتركيز استمر لدقائق، دعا (يوسف) أن يسألها بدهشة:

- ماذا تفعلين؟!

- أبحث عن المفتاح.

تعاظمت دهشة (يوسف) فصاح:

- عن أي مفتاح تتحدثين؟!

أجابت دون أن تنظر إليه:

- إنها لعبة اعتدت أن ألعبها مع والدي منذ طفولتي، عبارةعن شفرات لفظية تستتر خلف جُمل تؤدي لمعانٍ مختلفة.

قالتها وظلّت عيناها لدقائق تدوران على الكلمات مرة تلو الأخرى دون كلل، وهما ينتظرانها في ترقب لتهتف بلهفة:

- وجدتها.

ثم رفعت عينيها إليهما مستطردة:

- بعد استبعاد حروف الجر والتعريف، تتبقى لدينا بضع كلمات نستخلص منها الحرف الأول من كل كلمة.. عندها نجد الجواب.

- وما هو الجواب؟

تساءل (يوسف) مجددًا فأجابت:

- بحر يوسف.

رددا بعدها بدهشة:

- بحر يوسف.

أشارت لهما أن يقتربا قائلة:

- انظرا معي.

مالا بجذعيهما ليريا ما تشير إليه فتابعت:

- بعد حذف حرف الجر الوحيد بالجملة، تتبقى لنا كلمات تشكل أحرفها الأولى حل الشفرة.

(بداية حياتك ربما يمهدها وفاتي سماح فاروق).

تساءل (عزيز):

- ما علاقة هذا الكلام بما نبحث عنه؟

أجابت بثقة:

- والدي أنار لنا الخطوة القادمة.. الحل يكمن في منطقة بحر يوسف بالفيوم، بالتحديد في بيتنا الريفي هناك.

تساءل (عزيز) بشك: هل أنتِ متأكدة؟

أومأت برأسها إيجابًا وهي تُجيب بثقة مطلقة:

- تمام التأكد.. لقد كنا نجرب أكثر من شفرة في لعبتنا الصغيرة، لكن هذه

الشفرة بالتحديد استخدمناها كثيرًا.

كان (يوسف) يستمع إليهما، بينما ذهنه منشغل بأمرٍ ما دفعه لأن يُخرِج من طيّات ملابسه خطابًا آخر.. خطاب وُجِه إليه من قبل، أعاد قراءة كلماته بعينه في تمعن، ثم توقف عند جملة بدت له حينها مبهمة..

(أدعوك أن تقاتل عليها وأن تسع خلفها يا حامل اسم النبي).

(أمخر عباب بحرك إن استطعت لتصل إليها).

(بحر يوسف).

أعاد قراءتها من جديد بصوت واضح ثم قال:

- إذن هذا ما أراده لنا دكتور (فاروق) منذ البداية.

تابعت (سماح) من بعده: كان يعلم أننا سنلتقي.

هز (يوسف) رأسه نفيًا:

- بل هو مَن أراد لنا أن نجتمع.

قال (عزيز) بارتياح:

- لقد حسمتما خطوتكما المقبلة.

رد (يوسف) بأسى:

- الله وحده يعلم كم تبقى لنا من خطوات حتى نصل لنهاية الطريق.

قال (عزيز) مهوّنًا:

- يبقى الأمل قائمًا طالما هناك ضوء في نهاية النفق.. ليس المهم طول المسافة بل الأهم ألا نتعثر في الطريق عندها قد...

بترت الكلمات بين شفتيه حين فُتح الباب بعنف، طالعهم وجه الشاب بادي التوتر مما حدا بالدكتور (عزيز) أن يسأله في انزعاج:

- ما الأمر يا (هشام)؟

أجاب (هشام) بسرعة وبنبرة متوترة:

- هناك سيارات تقترب من مدخل المزرعة.

انقلبت سحنة الجميع إثر كلماته إلى الجزع الشديد، هبوا من جلستهم و(عزيز) يقول بحنق:

- اللعنة.. لقد كشفوا مكاننا.

ثم تحرك من مكانه وهو يصيح:

- لا بد أن نهرب بسرعة.

تساءل (يوسف) وهو يتلفت حوله في كل اتجاه:

- كيف وهُم يحاصروننا؟!

- ليس بعد.

قالها بثبات وتوجه نحو مكتبة خشبية ضخمة احتلت الجدار بأكمله، حركها ليظهر خلفها باب صغير تم إخفائه ببراعة، انسلوا عبره إلى ممر قادهم إلى ما يشبه موقف سيارات صغير احتوى على سيارتين إحداهما تلك التي قادت (يوسف) و(سماح) إلى المكان. ناول (عزيز) ل(يوسف) مفتاح أحدهما قائلًا:

- لا بد لكما من الهرب بسرعة، ونحن سنضللهم من طريق آخر.

- لكن ذلك خطر عليكما.

- لا تشغل تفكيرك بهذا الأمر المهم أن تكملا أنتما وتكشفا أمرهم، بذلك نكون قد ثأرنا ل(فاروق) من هؤلاء القتلة سفاحي التاريخ.

رنت (يوسف) على كتفه في امتنان، قبل أن ينظر (عزيز) نحو (سماح) نظرة أب حانية ويستقل كل فريق منهما سيارته قائدًا إياها في اتجاه مخالف..

*****

(18)

تبدّل حال الملك من النقيض إلى النقيض.. رغم أن حال البلاد كان يزداد تأزمًا وهتون الحُكم تصبح أشد تعقيدًا يومًا بعد يوم، لكن (واح إيب رع) كان دائمًا ما يتحلى بالهدوء والصبر والتعقل في حل أي معضلة تواجهه، كان ديدنه أن العصبية المفرطة تفقد المرء قدرته على التركيز وتعمي بصيرته عن رؤية الحقيقة الواضحة، كان يستعين على ذلك بخلصائه وحاشيته المقرّبة، وعلى رأس ذلك الجمع، كبير الكهنة ذو الخبرة والحنكة في تقديم المشورة وتدبير الأمور.. لكن اليوم وفي هذا الموقف تحديدًا، فقد أي قدرة له على التعقل والروية، صار أكثر عصبية.. أشد قسوة.. شديد التوتر وهو يتخيّل حجم المؤامرة التي تحاك ضده في الخفاء وعقله يصوّر له عدد الأشخاص المشتركين بها، حتى فقد ثقته في أقرب الناس إليه.. كاد الشك في كل شيء أن يُذهب بعقله وها هو يدور كالليث الحبيس داخل قاعة عرشه ينتظر الأخبار على أحر من الجمر خاصةً حين طلب كبير الكهنة لقاء عاجل على قدر كبير من السرية.

مرّت الدقائق بطيئة والقلق ينهشه ببطء وبلا رحمة، حتى تصاعد صوت

خطوات كبير الكهنة وصوت طرق عصاته الرتيبة، شد قامته ونفض عن نفسه مظاهر التوتر والانفعال، عاد إلى كرسي عرشه يجلس عليه باعتداد وشموخ وهو يقبض على صولجانه بقوة مصدّرًا سمتًا هادئًا، ما أن مثل كبير الكهنة أمامه حتى تساءل بصوت جعله قدر استطاعته هادئًا يُخفي ما يعتمل داخل نفسه من اضطراب:

- هل توصلت لشيء بخصوص الأمر الخطير الذي حدثتني به سابقًا؟

هز كبير الكهنة رأسه نفيًا وقال وهو ينتقي كلماته بعناية:

- الحق أقول أن السيد (أمازيس) بالفعل صعب المراس،شديد الحذر والدهاء، ليس من السهل إثبات أي خطأ عليه.

تساءل (واح إيب رع) بدهشة:

- ألم تجد ما يريب في تحركاته أو تصرفاته داخل الجيش خلال الفترة الأخيرة؟

- على العكس يا مولاي، بل كان يؤدي كل مهامه القيادية على أكمل وجه، ويسعى بكل جد لرأب الصدع والشقاق بين فصائل الجيش بشكل علني وكأنه...

توقف كبير الكهنة عن الاستطراد في الحديث، فضيق (واح إيب رع) عيناه متسائلًا:

- وكأنه ماذا يا كبير الكهنة؟

- وكأنه يرسل هذه التصرفات كرسالة خفية لمَن يراقبه.

تساءل بحذر:

- أتظن أنه اكتشف مراقبتنا له؟

قال كبير الكهنة بحكمة:

- مولاي مع شخص مثل (أمازيس) وبكل ما يمتلكه من صفات، علينا أن نضع في حسباننا كل الاحتمالات.

صمت الملك لبرهة متفكرًا قبل أن يلوّح بيده قائلًا:

- لتستمر مراقبتنا له إذن حتى نتيقن من حقيقة الأمر، وحتى ذلك الحين سنبقى على حذرنا ولن تتغير معاملتنا معه.

وافقه كبير الكهنة بإيماءة من رأسه وهو يقول:

- نِعم الرأي يا مولاي.

تذكّر (واح إيب رع) شيئًا نسيه في خضم ما يدور حول قائد جيشه وما يثار عنه فتساءل مجددًا:

- ماذا عن ذلك الكاهن الذي اقترن اسمه باسم (أمازيس)؟

تحدث كبير الكهنة موضحًا:

- مولاي يقصد الكاهن (ددف رع).

- نعم.. نعم.. ماذا عنه؟

شرح كبير الكهنة ما يعرفه عن (ددف رع) بإيجاز:

- لقد كان أحد كهنة المجمع المقدّس هنا في سايس، كان يُتوقع أن يصبح له شأنٌ كبير نظرًا لفطنته وقدرته الهائلة على استيعاب النصوص وحُسن تفسيرها، حتى أنا كنت أعده لشغل منصب أعلى في المستقبل.

- إذن ما الذي قلبه هكذا من النقيض إلى النقيض؟

- (ددف رع) لم يرض بما قسمته له الآلهة، بل كان دائم السخط على كل شيء، متعجرف، شديد الاعتداد بنفسه، لا يقبل تلقي التعليمات حتى من مَن هُم أعلى منه منزلة، كما بدأ يطمع في شغل منصب سياسي يخوّل له الاقتراب من دوائر حُكم المملكة، فبدأ يجهر بآرائه السياسية المعارضة ويجتذب الأتباع حوله من صغار الكهنة والمتدربين الذين بهروا بشخصيته القوية وسطوته النفسية الكاسحة، لم نجد أمامنا سبيلًا سوى إخراجه من مجمع الآلهة المقدّس هنا بالعاصمة وإرساله إلى معبد بعيد منعزل كي يزوى به فلا نسمع منه أو عنه ما يعكّر صفونا.

قال (واح إيب رع) بحِدّة:

- فكان الرأي الصواب أن ترسله إلى منف دون أن تجعل هناك مَن يتابعه وينقل لك أخباره!!

- معذرة إن كنت أخطأت يا مولاي.. لكنني لم أقدّر أن تسوء الأمور إلى هذا الحد.

- الخطأ في تقدير الأمور والاستهانة بها يؤدي إلى كوارث يا كبير الكهنة.

- الحق ما قال مولاي.

لم يكد ينطقها حتى دلف إلى القاعة الفسيحة، أحد جنود الحرس الملكي، شد قامته في احترام ثم قال:

- الكاهن (ددف رع) من مدينة منف ينتظر بالخارج ويطلب الإذن في مقابلة مولاي الملك.

بهت كل من (واح إيب رع) وكبير الكهنة، اتسعت عيناهما في دهشة قبل

أن يقول الأول:

- يأتي إلى هنا بقدميه.

تمتم كبير الكهنة:

- بعد كل تلك السنين.

بقى الحارس متجمدًا في مكانه ينتظر الأوامر لوّح له الملك بيده:

- ادخله.

ما أن استدار الجندي لتنفيذ الأمر حتى التفت (واح إيب رع) لكبير الكهنة قائلًا:

- لنستمع إلى ما هو قادم بشأنه.

ثوان مرت قبل أن يدلف (ددف رع) بجسده الضخم وملامحه الغليظة، كان قد ارتدى زي الكهنوت الرسمي الذي يتم ارتداءه في المناسبات الرسمية، كالاحتفالات الدينية ويوم جلوس الملك على عرش المملكة، توشح بقلادات وخواتم يرمز كل منها إلى معبود من مجمع الآلهة، ثم تقدم إلى العرش وانحنى انحناءة مبالغ فيها أثارت استياء كبير الكهنة وقال:

- السلام على مولاي ملك مصر حفظتك الآلهة من كل سوء كما تحفظ أرضنا والرعية.

- لم تطلب إذن مسبق بالمقابلة أيها الكاهن، وقطعت من معبدك إلى هنا مسافة طويلة، لا ريب أن ما تحمله على قدر كبير من الأهمية.

قال (ددف رع) بثقة:

- ليست أهمية الأمر ما دفعني إلى الحضور يا مولاي بل خطورته.

تبادل (واح إيب رع) نظرة خاصة مع كبير الكهنة الذي التزم الصمت التام، بينما الأول يقول:

- قص على مسامعنا ما لديك ودعنا نحن نقدّر أهميته وخطورته.

انحنى (ددف رع) مجددًا في مداهنة ثم بدأ حديثه قائلًا:

- مولاي الملك يعلم مدى ولائي واخلاصي له وللبلاد، وحرصي الدائم على استقرارها، لكن الحق أقول وأعترف أن هذا لم يكن ديدني على الدوام، ففي فترة سابقة من حياتي لم تكن لدي الرؤية الكاملة للأمور، كان اندفاع وحماس الشباب يغلبني فجاهرت بآراء معارضة لأوضاع الحُكم في البلاد.. كنت وقتها أسعى لأن تعود بلادنا حاضرة، مزدهرة، قوية كما كانت دائمًا، لكن البعض يا مولاي ظن أن جهارتي بالمعارضة قد تدفعني لخيانة مليكي الذي يحظى بمباركة الآلهة، فصار يتقرّب مني ويحاول استمالتي لتحقيق أطماع شخصية.

قاطعه (واح إيب رع) متسائلًا:

- أي أطماع تلك؟ واستمالك لماذا؟

افتر ثغر (ددف رع) عن ابتسامة خفيفة أزالها بسرعة عن وجهه، وإن تحولت بعد أن دفنها داخله إلى ضحكة عالية ساخرة، حين لم يسأله الملك أولًا عن مَن حاول استمالته، وكأنه يعلم الإجابة مسبقًا فأجاب بسرعة:

- كان المطلوب مني تأليب الناس وإثارة الفتن وإيقاد شرارة الثورة في نفوس الرعية، بالإضافة إلى استغلال علاقاتي داخل مجتمع الكهنة لتكوين جبهة معارضة قوية، تستغل ثقة الرعية في مجمع الآلهة المقدّس وتدعوهم إلى الثورة والعصيان.

مال (واح إيب رع) بجذعه إلى الأمام متسائلًا بحِدّة:

- مَن هذا الذي يقود الثورة ضد الملك؟

كاد (ددف رع) يخبره أنه بالتأكيد تعلم مَن، لكنه رسم مخايل الصدمة على وجهه وهو يُجيب:

- القائد (أمازيس) يا مولاي، ومعه العديد من قادة الجند المصريين.

انطلق صوتٌ صارم عند مدخل القاعة يهتف بقوة:

- كذبت أيها البغي الأفاق، فما أنا إلا خادم للمملكة ولمولاي الملك الذي أقسمت بين يديه على الولاء والطاعة.

كان (أمازيس) يقف بحُلته العسكرية وشياطين الغضب تعربد في تقاسيم وجهه، فصاح (واح إيب رع):

- تقدم يا (أمازيس).

خطا نحو العرش بخطوات ثابتة، انحنى في تبجيل، وظلّ على وضعه لبرهة نظر له فيها الملك مليًا قبل أن يقول:

- اتهامات في منتهى الخطورة تلك التي وُجِهت إليك الآن يا (أمازيس).

اعتدل (أمازيس) وشد قامته قائلًا بصلابة:

- مولاي الملك يعلم تاريخي جيدًا، وجهادي في قتال أعداء المملكة لتدعيم ركائزها لا يحتاج لإثبات.

تدخّل (ددف رع) في الحوار قائلًا:

- لكن ذلك لن يشفع لك عاقبة الخيانة.

نظر له (أمازيس) نظرة تنقد غضبًا، رفع بعدها الملك كفه في وجه (ددف رع) في إشارة صارمة تحمله على الصمت، بينما نظر هو إلى (أمازيس) قائلًا:

- لا أحد ينكر تاريخك العسكري يا (أمازيس).. لكن بذور الشك سريعة النمو كما تعلم.

قال بصرامة:

- سأقتلعها من جذورها يا مولاي.

تساءل (واح إيب رع) بشك:

- كيف؟

أجاب بنبرات واثقة:

- بأن أثبت لك ولسيدي كبير الكهنة المؤامرة الدنيئة التي ينفذها الأعداء للخلاص مني.

- أرنا ما في جعبتك.

انحنى نصف انحناءة قائلًا: أمر مولاي.

ثم استدار وأشار بيده لجندي من رجاله وقف بتهيب عند مدخل القاعة الملكية إشارة فهمها هذا الأخير على الفور، غاب على إثرها لبرهة عاد بعدها ومعه أحد زملائه يحملان غطاءً ثقيلًا تكوم بداخله شيءٌ ما، فردوه أمام الجميع فتدحرجت جثة القصير على الأرض وهي مخضبة بدمائها.

انزعج كل من الملك وكبير الكهنة لمرأى الجثة، بينما اتسعت عينا (ددف رع) في ذعر وتصاعدت أنفاسه اللاهثة والأول يصيح بغضب:

- ما معنى هذا العبث؟!

أجاب (أمازيس) بهدوء:

- معناه أن المؤامرة قد تكشفت أخيرًا وظهر مَن هُم خلفها ومَن هو قائدها.

ثم أشار بإصبعه تجاه صدر (ددف رع) مكملًا:

- إنه الكاهن (ددف رع) يا مولاي.. ذلك الذي أتى اليوم خاشعًا ليكمل لعبته القذرة في ضرب قيادات البلاد بعضها ببعض، يتخلص مني ومن قادة الجيش المخلصين، ويثير بواعث القلق والشك في كل مَن حولك، ثم يتقرَّب هو إليك صاعدًا على جثتنا ليكمل مخطط سادته الكبير.

زوى (واح إيب رع) ما بين حاجبيه قائلًا بدهشة: سادته!

أومأ (أمازيس) برأسه:

- نعم يا مولاي سادته، وأقصد هنا البابليون.

انزعج (واح إيب رع) عند سماع اسم عدوه الأكبر بينما تمتم كبير الكهنة الذي انفلتت الكلمات عن لسانه من هول الصدمة دون قصد:

- غير معقول.

قال (أمازيس) وهو يشير مجددًا نحو (ددف رع):

- بل لساني ينطق بالحق ولدي الأدلة.

قالها وانحنى على الجثة، فرد ذراعها الأيمن فظهر وشم على ساعدها..

وشم يعرفه (ددف رع) جيدًا..

ثعبان ضخم يلتف حول صولجان ويكاد يطبق فكيه على قمته.

- هذا الوشم تحيرت في معرفة ماهيته كثيرًا، حتى وجدت شبيهه منقوش بفخر على باب صومعة هذا الكاهن الخائن.

قالها (أمازيس) وهو يحدّج (ددف رع) بنظرة خاصة، ثم أكمل موجهًا حديثه إلى الملك الذاهل:

- يبدو أنه شعار يميّز جماعتهم.. يوسمون أنفسهم به يا مولاي.

صاح (ددف رع) بصوت مبحوح وجسده بأكمله ينتفض ذعرًا:

- القائد (أمازيس) يداري خيانته ومحاولته الانقلاب على العرش بهذه اللعبة القذرة. أقسم لك يا مولاي أن كلامه كذب ومحض افتراء، هذه الأدلة تم تزييفها، أنا لا أعرف هذا الرجل ولم ألتقيه في حياتي من قبل وما وسم به ساعده لا علاقة له بي، بل هي محاولة لكسب حظوة لديك كي تأمن جانبه حتى يحقق مأربه.

حار (واح إيب رع) في الأمر وتلاطمت الأفكار والظنون داخل رأسه، لم يدر مَن منهم يكذبه ومَن يصدقه، نظر إلى كبير الكهنة علّه يجد لديه الجواب، لكن نظرة واحدة لهذا الأخير جعلته يتأكد أنه يشاركه حيرته، بل ربما كان أشد اضطرابًا منه، لكن (أمازيس) لم ينتظر بل بدا واثقًا من موقفه معتدًا بنفسه حين قال:

- إذا كانت هذه الأدلة قد تم تزييفها، فماذا عن دليل آخر قاطع لا يقبل الشك.

تساءل (واح إيب رع) بلهفة مَن يغرق وعثر على لوح خشبي:أين هو؟

على الفور وبإشارة من (أمازيس) لتابعه استدعى من الخارج شاب في زي الكهنة، خطا إلى الداخل متهيبًا وقد بدا عليه الارتباك، انحنى أمام الملك

ووقف بين يديه صامتًا..

- اتل شهادتك أمام مولاك الملك وكبير الكهنة، وأعلم أن مغبة الكذب غضبُ ساحق لا يُذِر من الآلهة.

قالها (أمازيس) بصرامة، بينما وجّه الملك سؤاله إلى الكاهن الشاب:

- مَن أنت أيها الشاب؟

أجاب الكاهن بتلعثم:

- خادمك (منتو).. أحد المتدربين في معبد الكاهن (ددف رع).

أشار الملك إلى الجثة الملقاه على أرضية القاعة وسأله:

- هل رأيت هذا الرجل من قبل؟

حدّق (منتو) في الجثة أمامه للحظات قبل أن يُجيب:

- نعم يا مولاي رأيته من قبل.

ضيّق (ددف رع) عيناه بتوتر بينما الملك (واح إيب رع) يسأل مجددًا:

- أين بالضبط؟

- لقد كان يأتي على فترات متباعدة في أوقات متأخرة من الليل لزيارة الكاهن الأكبر (ددف رع) داخل صومعته الخاصة.

صاح (ددف رع) محتدًا:

- كذب.. كذب يا مولاي.. هذه مؤامرة مدبّرة بكل تأكيد.

صرخ (واح إيب رع) في وجهه:

- حتى متدربك شهد ضدك.. هل أصبح الجميع يتآمر عليك فجأة؟!

بينما غمغم كبير الكهنة:

- اللعنة عليك أيها التعس.. ألم تتعظ رغم مرور كل تلك السنوات.

- أنا بريء.. بريء يا مولاي.. أقسم لك أن الأمر بأكمله مدبر.

أشار (أمازيس) إلى رجال الحرس الملكي فتقدموا نحو (ددف رع) وكبلوا حركته والأخير يصرخ بجنون بينما يقتادونه إلى الخارج، لكنهم توقفوا إثر هتاف من الملك:

- توقفوا.

جمد الجميع في أماكنهم، توتر (أمازيس) وهو يتساءل في قرارة نفسه عما يدور داخل عقل الملك الذي وجه إليه الحديث قائلًا:

- ألق به في محبس خاص ولا يقربه أحدٌ منكم، ولتكن سلامته مسئوليتك الشخصية يا (أمازيس)، حتى أتدبر بنفسي تفاصيل تلك المؤامرة وأتيقن من زعم كليكما.

انحنى (أمازيس) نحو الملك بإجلال قبل أن يشير للجنود أن يكملوا مسيرتهم، و(ددف رع) بين أيديهم كالفريسة بين أنياب الضواري يصرخ وهم يسوقوه خارج القاعة مخاطبًا الملك:

- احذر قائد جيشك يا مولاي فأنت تقبض على جمرٍ ملتهب.

ظلَّ يرددها حتى غاب صوته بين أروقة القصر.. لكن الكلمة تردد صداها وطفق يتعالى في أذنيه.. هل عليه بالفعل الحذر من قائد جيشه؟

هل من الممكن أن ينقلب عليه هذا الأخير طمعًا في الحُكم؟

وهل من الممكن أن يحدث هذا الأمر يومًا في تاريخ المملكة المصرية؟

مَن يدري؟

بينما خلفهم خرج (أمازيس) صحبة الكاهن الشاب (منتو) والأخير يهمس قائلًا:

- لقد نفذت ما اتفقنا عليه يا سيد (أمازيس)، أرجو ألا تنسى وعدك لي بخلافة (ددف رع) في رئاسة المعبد.

تمتم (أمازيس) بصوتٍ خافت:

- إنها لك.. لكن لا تنسى تنفيذ ما تبقى من الخطة.

- عدها قد نُفِّذت يا سيدي القائد.

وابتسم الاثنان في خبث.

* * * * *

(19)

انطلق (يوسف) بالسيارة إلى طريق الفيوم، (سماح) تجلس بجانبه وقد خيم عليهما صمتٌ تام.. صمت حاول (يوسف) أن يقطعه بأي كلمة تكون مدخلًا لحديث يهوِّن عليهما طول المسافة، لكن نظرة واحدة منه كانت كافية كي يلزم الصمت، حين لاحظ بطرف عينه (سماح) وقد رنت ببصرها إلى الطريق الذي استقبل أول خيوط ضوء نهار يوم جديد، بعد أن بدأت سماؤه تصطبغ بألوان الزرقة القاتمة، بينما بقيت أعمدة الإنارة على طول الطريق مضاءة لتشييع ما تبقى من الليل.

كانت شاردة بعينين جامدتين، لم يكن بمقدوره معرفة ما يدور بخلدها

من أفكار وما يجيش به صدرها من مشاعر متلاطمة أدمت فؤادها بقسوة وهي تتخيل حجم المعاناة التي علاناها والدها في سنوات عمره الأخيرة..

كيف تحمّل كل هذا في صمت.. كيف حمل وحده هذا العبء ولاقى كل هذه الأخطار في ثبات دون أن يُحمّلها ولو مثقال ذرة منها..

كان يبتسم لها ويعينها، يتحمل أفكارها الساذجة وسماع مشاكل يوميات حياتها الفارغة في صبر وأناة، بينما هو يتمزق من داخله دون أن يخبرها أو يُظهر لمحة من تبرم..

كان قلبه ينفطر عليها وهو يعلم علم اليقين أنه يقضي ساعاته الأخيرة.. لله درُك من أب!

فاضت آلامها بما لا تستطيع تحمله، انحدرت من عينها دمعة أسى.. دمعة شاهدها (يوسف) تحفر طريقها ببطء على وجنتها فقال في مواساة والألم يعتصر قلبه هو الآخر:

- هوّني عليك، لن ندعهم يفلتوا بما اقترفت يداهم.

قالت وهي تمسح دموعها بيدها:

- ما يؤلمني هو أنني تركته يجابه كل هذا بمفرده.

- لقد كان هذا قراره.

تنهدت (سماح) بحرقة دون أن تنطق بحرف، ثم التفتت بعد برهة لـ(يوسف) قائلة:

- هل سألت نفسك كيف عثروا علينا في مزرعة دكتور (عزيز) رغم كل الاحتياطات التي اتخذناها؟!

- طرحت هذا السؤال على نفسي بالفعل، ولم أجد له سوى إجابة واحدة مخيفة.

- وما هي؟

أجاب وقد انتابه توتر لمجرد ذِكر ما هداه إليه تفكيره:

- إننا نتعامل مع كيان شرس.. منظّمة عالمية ذات نفوذ قوي وإمكانيات هائلة، تدعم رغبة جامحة في الحصول على تلك البردية لتحقيق مأرب خاص بهم، مهما كانت الوسيلة التي سيتبعونها لذلك.

قالت برهبة:

- كلمات تثير الرجفة في أوصالي، كأن ما لاقيته من رعب حتى الآن ليس كافيا.

تنهّد قائلًا:

- إنها الحقيقة مع الأسف.

قالها ونظر إليها بشفقة بعد أن لاحظ اتساع عينيها ونظرة الوجل تطل منهما، حوّل عينه مجددًا إلى الطريق الممتد أمامه ويده تقبض على المقوّد بقوة، قبل أن يكتسب صوته تصميم وإصرار وهو يقول في صرامة:

- لكننا سنردعهم مهما كانت العقبات، إنها حياتنا ومستقبلنا على المحك، وأيضًا دماء فقيد عزيز سيدفعون ثمنها لا محالة.

أنهى جملته ثم عاد الصمت يخيّم عليهما مجددًا ما تبقى من الرحلة.

أشرقت شمس الصباح وألقت بضيائها على الموجودات حين توقفت السيارة أمام منزل ريفي من طابقين، تمتّ إحاطته هو والحديقة الصغيرة

أمامه بسورٍ صغير تساقط طلاؤه في أكثر من موضع بعد أن طالته يد الزمن بقسوةٍ دون رفق..

ترجلت (سماح) من السيارة، تتطلع نحو المنزل بشجن، من خلفها (يوسف) يبادرها بالسؤال:

- هل هذا هو المنزل؟

أومأت برأسها إيجابًا وهي لا تزال تحدّق في أركان البيت:

- نعم.. هذا هو منزل جدي.

ثم التفتت إليه مستطردة:

- لقد وُلِدت وقضيت طفولتي في هذا المنزل، قبل أن أنتقل إلى القاهرة في سنٍ صغيرة لاستكمال دراستي.

نظر (يوسف) إلى الطريق خلفهما قائلًا:

- حسنًا.. هيا إلى الداخل فلا نريد أن نلفت الأنظار.

تقدما سويًا إلى المنزل، ولم تكد (سماح) تولج مفتاحها في رتاج الباب حتى سمعا من خلفهما صوت يهتف:

- مَن هناك؟

توجهت أنظارهما صوب صاحب الهتاف، رجل متقدم العمر يمتلك شعر أشيب تراجع كثيرًا عن مقدمة رأسه، يرتدي ملابس ريفية بسيطة مكوّنة من جلباب قديم حال لونه ووشاح يغطي كتفيه وغطاء رأس صغير..

لم يتلق إجابة على سؤاله، اقترب أكثر مدققًا نظره في وجهيهما قبل أن يتساءل مجددًا:

- مَن أنتما؟

أجابت (سماح):

- أنا (سماح فاروق)، ابنة الدكتور (فاروق زيدان) صاحب هذا المنزل، وهذا أحد أقاربنا أتى معي للحصول على بعض المقتنيات الخاصة منه.

قرنت قولها بأن أخرجت من حقيبتها بطاقة الهوية، لكن الرجل مد يده مقاطعًا إياها وهو يقول:

- لا داعي يا ابنتي فأنت قريبة الشبه بأباك.

ثم ارتسمت ابتسامة حانية على وجهه وهو يقول:

- لا ريب أنكِ لا تتذكرينني، قد مرّت أعوامٌ على انتقالك للعيش بجوار والدكِ في القاهرة.. أنا عمك (منتصر)، مَن كان يجلب لكِ الحلوى وأنتِ صغيرة.

استعادت الذكرى فأشرق وجهها فجأة وهي تهتف:

- عم (منتصر).. لقد تغيّرت كثيرًا.. كيف حالك يا عمي؟

- بخير حال يا ابنتي.. أصارع الدنيا وتصارعني، لكنها لم تهزمني بعد.

- أعانك الله يا عمي وحفظك لنا ولأسرتك.

- وما أخبار والدكِ، ألن يعد لزيارتنا في الوقت القريب؟

ألمت كلماته (سماح)، ترددت في البوح بما حاق بوالدها، لكنها أحجمت في اللحظة الأخيرة قبل أن تُثير المزيد من تساؤلاته، فقالت وابتسامة حزن تحفر طريقها بقسوة على وجهها:

- سيأتي يا عمي.. حتمًا سيأتي، هو لم يتخلى عن جذوره أبدًا.

قالتها وودعته، بعد أن وعدته جزاء إلحاح شديد على زيارته في منزله وتناول وجبة الغذاء معًا.. دلفت (سماح) إلى داخل المنزل يتبعها (يوسف)، كان قد ظلّ صامتًا طوال حديثها مع جارها العجوز، ثم قال أول ما خطت قدمه إلى الداخل ورنا ببصره في أرجاء المكان:

- يبدو أنكم لم تأتوا إلى هذا المنزل منذ زمنٍ بعيد بالفعل.

أومأت برأسها إيجابًا وهي تتطلع إلى الأثاث المغطى بالملاءات القديمة، كم الأتربة التي تغطي كل شيء، وخيوط العنكبوت التي نُسجت على مدار سنوات على الثريا المعلقة في السقف:

- هذا المنزل مثله مثل شقتنا القديمة بالقاهرة، ظلا مغلقين لسنوات.

ثم تنهدت بحرقة مستطردة:

- لم نكن نتخيّل أن يكونا ملاذنا في وقت الشدّة كما الآن.

قالتها وهزّت رأسها، تنفض عنها تلك الأفكار قبل أن تقول:

- لا بد لنا من تفتيش كل بقعة في المنزل جيدًا، حتى نعثر على طرف الخيط الجديد.

تساءل (يوسف):

- من أين نبدأ؟

أجابت وهي تشير إلى حجرة مغلقة نحو اليمين:

- أعتقد أن نبدأ من حجرة المكتب.

حين خطيا بقدمهما إلى داخل الحجرة كان وقع أثرها عليهما عنيفًا.. تجمدا

للحظات بعد أن لفحهما سيلٌ من الذكريات والحنين.. كل ركن يفوح بعبق الدكتور (فاروق) كما لو كان ما يزال حاضرًا بينهما.

تمتم (يوسف) بصوت مختنق:

- كأنني مأراه جالسًا أمامي يطالع أوراقه.

تنهدت (سماح) وزفرت أنفاس ملتهبة من صدر يحترق وقالت:

- لقد خالجني نفس الشعور.

تقدم (يوسف) إلى منتصف الحجرة وقال بنبرة عملية كي يقطع عن عقليهما حبل الذكريات المؤلمة:

- لا بد لنا من تفتيش كل شبر فيها.

ثم أشار داعيًا إياها:

- هلمي معي.

استمرا يفتشان أرجاء الحجرة، لم يتركا درجًا من الأدراج إلا فتحاه وأفرغا محتوياته، ولا كتاب من الكتب إلا فتحاه وطالعا ما به، قبل أن يتوقفا لاهثين و(يوسف) يقول بحنق:

- لا يوجد شيء ذا بال.. يبدو أننا كنا مخطئين.

قالت (سماح) في محاولة لتخفيف وطأة الأمر:

- لم نكمل بحثنا في أرجاء المنزل بأكمله، ربما والدي وضع ما نبحث عنه في مكان آخر هنا.

- أو ربما ما نبحث عنه خارج هذا المنزل.

هزّت رأسها نفيًا وقالت بيقين:

- كلا.. أنا متأكدة من أن والدي أخفى البردية وأبحاثه عنها في هذا المكان، ذلك ما قادتنا إليه رسائله المشفّرة.

لم يُعلّق على قولها وإن ظهر الإحباط جليًا على ملامحه، خرجا من الحجرة فقالت (سماح):

- لنوزع جهدنا حتى نكسب أكبر قدر من الوقت.

- ماذا تقصدين؟

- ابحث أنت في غرفة والدي، بينما أبحث أنا في غرفتي.

أومأ برأسه موافقًا وذهب إلى حيث أشارت إليه، بينما توجهت هي إلى غرفة طفولتها التي بقيت على حالها لم يتغيّر بها شيء، حتى ألعابها وهي صغيرة بقيت في مكانها محفوظة لم تُمس، كأنما تنتظرها بعد كل تلك السنوات..

كل موضع يفوح بعطر الذكريات، تستطيع البقاء بها لساعات فقط كي تسترجع ما مضى من أيامها ولحظاتها السعيدة، تستعذب نشوة التفكير فيها مجددًا.. لكن الوقت لم يكن يسمح لها بذلك، بدأت على الفور في البحث المضني عن أي طرف خيط تركه لهما والدها.. أي شيء يستطيعان به إكمال المشوار والوصول إلى الحقيقة.. لكن كل محاولاتها ذهبت سدى بعد أن فشلت في العثور على هذا الشيء، ألقت بجسدها على فراشها القديم في يأس وإحباط وتمتمت وهي تغلق عينيها:

- لقد تعبت يا أبي.. تعبت.

لا تدري لم صدمتها الذكرى بعنف كشاحنة قطر مسرعة غفا سائقها..

ربما كانت الجملة التي نطقت بها.. ربما كان المكان.. لكنها أعادت لها بوضوح وجلاء ذكرى أخرى يوم قالت نفس الجملة منذ سنوات مضت..

- لقد تعبت يا أبي.. تعبت.

تبسم لها والدها واحتوى طفلته ذات التسعة أعوام، طبع على جبينها قُبلة حانية قبل أن يقول:

- لأنكِ لم تُعملي عقلك واستغرقت في البحث المحموم دون جدوى.

قالت بسأم:

- لكن الأمر في غاية الصعوبة.. كيف لي أن أجد شيئًا أخفيته أنت في أرجاء المنزل كله؟

أجاب بصبر:

- حين تتشاركين مع أحد في لعبةٍ ما، عليك أولًا دراسة شخصيته ومعرفة كيف يفكر، ثم تضعين نفسك في موضعه وتفكري بأسلوبه، عندها تجدين الكثير من الأمور الغامضة قد ظهرت لك دون عناء.

زوت ما بين حاجبيها في غضب طفولي:

- حسنًا هذا فيما هو قادم، أما الآن أخبرني أين الحلوى التي أحضرتها لي.

اتسعت ابتسامة (فاروق) قائلًا:

- ستجدينها بداخل أحب شيء إلى قلبك.

نظرت إليه لهنيهة قبل أن تنفرج أساريرها هاتفة في سعادة:

- حصان طروادة.

أومأ برأسه لها فاندفعت إلى حجرتها الصغيرة، توجهت إلى حصان خشبي تمتطيه أثناء لعبها، مالت إلى الأسفل وفتحت جزءًا من باطنه لتجد الحلوى تنتظرها..

اعتدلت (سماح) من رقدتها وفتحت عيناها بقوة وفي قرارة نفسها تساءلت:

- أيكون هذا هو المكان المنشود يا أبي؟!

حوّلت عيناها إلى الحصان الخشبي القديم الذي تراكمت عليه طبقات الغبار ونسجت العناكب أعشاشها على أجزائه، قامت من فورها وكما فعلت سابقًا في طفولتها، مدّت يدها أسفله وفتحت الجزء الصغير من باطنه وطفقت تتحسس ما بداخله حتى اصطدمت يدها بمُجلّد صغير وُضع بعناية. تألقت عيناها في حماس وسحبت المُجلّد بحرص، ثم مدت راحتها لتمسح من عليه آثار الغبار قبل أن تفتحه..

صافحت عيناها كلمات والدها المنمقة، المكتوبة بخط يده، احتضنت المُجلّد في صدرها وتمتمت:

- شكرًا لك يا أبي.

ثم هرولت إلى الخارج وهي تهتف منادية:

- (يوسف).. لقد وجدته.

سمعت خطواته تعدو نحوها، ثم ثوان وظهر أمامها صائحًا بلهفة:

- هل هذا صحيح؟

مدت يدها بالمُجلّد الصغير قائلة بحماس:

- نعم.. لقد وضعه داخل حصان طروادة.

بدهشة تساءل:

- حصان ماذا؟!

لوّحت بيدها في لا مبالاة:

- لا عليك.. المهم الآن أن نعرف محتوى هذا المُجلّد، بالتأكيد سيحوي طرف الخيط القادم.

انتقيا مكان في الردهة وجلسا سويًا، بينما (يوسف) يفتح المُجلّد ويبدأ القراءة بصوتٍ مسموع..

* * * * *

(20)

(حين يقع هذا الكتاب بين يديكِ يا ابنتي أكون أنا قد فارقت الحياة.. لقد حرصت أن أخفيه في مكانك المفضل عسى أن تهتدي إليه دون عناء.. سامحيني يا ابنتي، إن ما حدث وما أنا مقبل عليه هو قدرٌ من الله لي ولكِ، لم أكن لأختاره أنا لأيٍّ منا ولم أسعى إليه.. أكتب إليكِ هذه الكلمات داعيًا المولى عزّ وجلّ أن يتغمدني برحمته ويلهمكِ الصبر وينير لكِ الطريق نحو الخلاص. أعلم أن نفسكِ تموج بالتساؤلات وقلبكِ تملؤه الشكوك التي طالتني سهامها بلا حساب.

القصة بأكملها بدأت حين كلل الله مجهوداتنا وعثرنا على مقبرة (نفر رع) قائد الحرس الملكي للفرعون (واح إيب رع) أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرون.. تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر والتي لم تبح بالكثير من الأسرار حتى الآن.. كانت المقبرة بحالة جيدة، لم تطالها يد اللصوص ولم

تتعرض للتلف بسبب العوامل الطبيعية، مما أعطانا الأمل في كشف أثري ضخم له قيمته العالمية التي سترفع أسماءنا كعلماء مصريين إلى عنان السماء.. لكن ما حدث داخل تلك المقبرة قلّب الموازيين كلها رأسًا على عقِب حين عثرت عن طريق الصدفة على بردية حُفظت بشكل خاص بجوار المومياء.. بردية توضح بشكل رمزي مكان تواجد تابوت على قدر كبير من الأهمية، تم إخفاءه بعناية رغم بحث الكثيرين عنه.

تلك كانت بداية الأمر أما ما حدث بعدها فهذه قصة أخرى).

اقتحم (شوقي) مكتب (فاروق) دون استئذان كعادته، جلس في المقعد المقابل للمكتب ثم مد قدميه يفردهما على طاولة صغيرة أمامه، أثار ذلك استياء الأخير وإن لم يُعلّق على الأمر والأول يبادر بالحديث متسائلًا:

- لماذا لم تسجل البردية التي حصلنا عليها في سجلات الكشف الأثري المقدمة إلى الوزارة؟

أجاب (فاروق) وهو يتصنّع الانشغال:

- لم يحن الوقت بعد.

- ولماذا؟

أجاب وهو يتفحص الأوراق أمامه:

- لأن الأمر يحتاج إلى المزيد من الدراسة والتحليل قبل الإعلان عن كشف بهذه الأهمية.

نظر له (شوقي) نظرة ذات مغزى وقال:

- (فاروق).. إن ما تفعله خطير.

ثم ارتسمت ابتسامة ماكرة على وجهه وهو يُكمل:

- لكنه يروق لي.

رفع (فاروق) عينه تجاهه وقد استشعر ما يختبئ خلف كلماته الملتوية وتساءل بصرامة:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن الأمر بأكمله بإمكانه أن يصب في مصلحتنا لو تعاونا معًا.

زوى (فاروق) ما بين حاجبيه بغضب وهو يقول:

- (هوقي).. أنت تعلم جيدًا رأيي في مثل هذه الأمور، لا داعي لأن ينجرف بنا الحديث إلى ذلك المنحنى.

قال (هوقي) باستياء:

- دع عنك رأسك الصلب يا (فاروق) واستمع إليّ، تلك المنظّمة ستساعدنا على تحقيق هدفنا من خلال تمويل ما سنشرع به من أبحاث، وحين نصل لما نصبو إليه ستتركنا في رغدٍ لم نكن لنحلم به.

تساءل (فاروق) بصرامة:

- في مقابل ماذا يا (هوقي)؟! لا تقل لي أن غايتهم تحقيق نصر علمي فقط، لا تدعني أشكك في ذكائك.

أجاب في لا مبالاة:

- حتى لو كانت لديهم غاية أكبر من ذلك، ماذا يضيرنا نحن طالما سنحقق مبتغانا.

لوّح في وجهه بسبّابته قائلًا بحِدّة:

- بل مبتغاك أنت.

- طالما ستحوز النصر العلمي فما بالك وما ينشدونه.

صاح (فاروق) باستنكار:

- هل أنت حقًا بهذه السذاجة أم تظن بي الغباء، أم أن جشعك للمال أعماك عن الحقيقة؟

بادل (شوقي) صياحه بصياح حانق:

- كف عن فلسفتك يا (فاروق) وانظر حولك، إننا محاطون بالفسدة وأصحاب المطامع، الكل يرتقي ويكنز الأموال، بينما نحن في مكاننا لا نتقدم قيد أنملة.

- وهؤلاء الذين تبغي التعاون معهم سيتخلصون منك ومني لو وقفنا للحظة أمام مصالحهم.. لن يدعوا لنا نصرًا علميًا كما تدعي فهذا سيفضح كل شيء يسعون خلفه وإلا لطلبوا التعاون بشكل رسمي من الوزارة وما سعوا للالتفاف حولها سرًا وعرض التعاون معنا نحن.

- ثم ماذا تعرف عنهم وعن مَن يمولون أبحاثهم؟

- لا أعرف عنهم الكثير، ولا يهمني أن أعرف.. إنها منظمة خاصة ذات تمويل دولي وكفى.

- أرأيت.. كيف إذن نأمن جانبهم ونطلعهم بشكل غيررسمي على ممتلكات وآثار عامة ملك الدولة.

صاح (شوقي) متسائلًا بحِدّة:

- وهل الدولة على عِلم بأنك أخفيت آثارها ولم تدرجها في تقرير رسمي؟

صمت (فاروق) ولم يعقّب بعد أن بُهت من تساؤله الخبيث والتهديد المبطن الذي يفوح منه، فاستطرد (شوقي) بعد أن استشعر قوة موقفه:

- لا داعي للمراوغة يا (فاروق)، دعنا نمضي قدمًا فلا تنتظرنا سوى الثروة وحياة الرغد.

استمر (فاروق) على صمته وقد اكفهر وجهه وزاغت نظراته وسط حصار (شوقي) المستميت حتى تساءل بعد برهة:

- ها.. ما قولك؟

لم يدر بما يجيبه وقد تداعت إلى عقله مخاطر جمة تكمن خلف هذا التعاون المشبوه الذي تزكم رائحته أنفه بعطن لا يقدر على احتماله، فرد ظهره وتصلّب عوده وهو يبادل (شوقي) النظرات بتحد مُجيبًا:

- انس الأمر يا (شوقي)، أبلغهم أن (فاروق زيدان) لن يقبل التعاون مع منظمة مشبوهة في الخفاء، ولن يُقدِم على فعل يخالف ضميره طالما في صدره أنفاس تتردد وقلب ينبض بالحياة.

كانت ردة فعل (شوقي) مدهشة في حد ذاتها، لم يثر أو يتعالى صياحه المعترض أو حتى يهذي بتهديدات تُثني (فاروق) عن قراره، بل ابتسم ابتسامة مريبة ونهض من مكانه في هدوء وقال بلا مبالاة وكأن الأمر لا يعنيه من قريب أو من بعيد:

- حسنًا.. ليكن الأمر كما تريد.

ثم غادر الغرفة دون أن يلتفت خلفه مطلقًا صفيرًا منغومًا في استرخاء تاركًا (فاروق) مجلسه بملامح ذاهلة العجب التوجس يلتهمان خلايا عقله.

انهمك الدكتور (فاروق) كعادته داخل حجرة مكتب خاصة أثثها بعناية فائقة داخل منزله، في مراجعة بعض الكتب التاريخية القيّمة باللغة الإنجليزية، حرص على اقتنائها وتجميعها خلال سفراته المتعددة، وزيارته لكبرى مكتبات العالم عبر سني عمره الطويلة وبحثه الدائم عن كل ما هو جديد ومهم في عالم البحث التاريخي والأثري، بدا مستغرقًا تمامًا فيما يفعله حتى أنه لم يشعر بعقربي الدقائق والساعات اللذين ظلا يلهثان خلف بعضهما البعض وهو عنهما منشغلًا، يعتصر خلايا عقله في تركيز عميق، مستغلًا غياب ابنته عن المنزل منذ الصباح لشؤون دراستها الجامعية التي تلتهم في هذا الوقت من العام جلّ وقتها..

لم يخرجه عن تركيزه سوى رنين جرس الباب، تصاعد مرة تلو الأخرى في تعاقبٍ مزعج، انتبه فزفر ضيقًا وخلع عوينات القراءة واضعًا إياها على سطح المكتب، قبل أن يهرع ليستقبل القادم وهو يصيح بتأفف:

- حسنًا.. أنا في الطريق.

أنهى جملته وهو يدير مقبض الباب، انفتح كاشفًا عن وجه هادئ لرجل في منتصف العمر يحمل ملامح أجنبية بلا شك.. بدا ذلك واضحًا من شعره الأشقر الناعم، المصفف بعناية إلى الخلف كنجوم السينما، وعيناه الزرقاوان اللتان تحملا صفاء وبرودة كبرودة الثلج، وبشرة بيضاء ناصعة مع جسد متناسق داخل حُلّة فاخرة..

تأمله (فاروق) لوهلة قبل أن يرفع عينيه إليه متسائلًا فقال الضيف:

- معذرة دكتور (فاروق) إن كنت قد أزعجتك وأعتذر أيضًا عن قدومي للزيارة بغير موعد مسبق، لكن أهمية الأمر الذي أحمله ورغبتي في التحدث

معك بحريّة وعلى انفراد، دعتني للقدوم إلى منزلك بدلًا عن مكتبك بالوزارة.

حدّق به (فاروق) بدهشة بالغة وهو لا يكاد يعي ماذا يريد منه هذا الضيف الغريب، إلا أنه تمالك نفسه قائلًا:

- ربما لو عرّفتني بنفسك أولًا لأصبح الأمر أيسر كثيرًا بالنسبة لي.

ابتسم الضيف ابتسامة هادئة وكرّر اعتذاره:

- أعتذر مرة أخرى عن هذا الخطأ غير المقصود.

ثم مد يده لمصافحة (فاروق) وهو يضيف:

- أنا (ألبرت برنشلي)، المدير الإقليمي لمنظمة دولية هدفها الأسمى نشر العلوم وحماية التراث والبحث في تاريخ الحضارات القديمة.

صافحه (فاروق) بعد أن ظهرت أمارات الفهم على وجهه وبادر قائلًا:

- ألم يحمل لك السيد (هوقي) إجابتي على طلبك؟!

نظر (ألبرت) حوله وقال بحرج:

- ألن تدعوني للدخول أولًا؟!

أفسح له (فاروق) المجال داعيًا إياه للدخول:

- تفضل.

دلف (ألبرت) إلى الداخل وانتقى أقرب مقعد ليجلس عليه بأريحية شديدة، بدا كأنه اعتاد دخول المنزل وزيارة (فاروق) منذ زمن، جلس الأخير قبالته متطلعًا إليه بصمت فابتسم قائلًا:

- إجابة عن سؤالك.. بلى، لقد أبلغني السيد (شوقي) قرارك.

- إذن ما الداعي لتكرار العرض!

- الداعي أن السيد (شوقي) ربما سهوًا لم يشرح لك الأمر من جميع جوانبه.

ارتفع حاجبا (فاروق) في دهشة من أسلوب (ألبرت) الهادئ ثم قال:

- حسنًا.. بإمكانك شرح أبعاد الأمر كما تشاء، غير أني لا أعتقد اختلاف قراري حينها.

- لا تستبق الأحداث يا دكتور.

ثم اعتدل في جلسته قائلًا:

- البردية بحوزتك تتحدث عن تابوت عظيم الشأن مفقود منذ عهد الأسرة السادسة والعشرون.. هذا التابوت سيكون حين العثور عليه كشفًا هائلًا بكل المقاييس.. لن يكون له نظير ليس من الناحية الأثرية فقط، لكن أيضًا من الناحية التاريخية، بما قد يكشفه من أسرار عن تلك الفترة الغامضة من التاريخ.

تساءل (فاروق) بعد أن استمع لمقدمته:

- حتى لو فرضنا أن ما تقوله صحيح، ما دورك أنت ومنظمتك في هذا الأمر؟

فرد (ألبرت) راحتيه أمامه وهو يقول:

- نبغي المساعدة بالطبع.. هذا الكشف سيكون له عظيم الأثر في تصحيح الكثير من مفاهيم تاريخ اعتقدنا سلفًا أنها مسلّم بها، هذا يهم العالم أجمع

وليس فقط الجهات المصرية.

- إذن بإمكانكم التواصل مع الجهات الرسمية المصرية وتقديم عرض للتعاون والتمويل طالما يشغلكم الأمر إلى هذه الدرجة.

- دكتور (فاروق) أنت تعلم صعوبة هذا الأمر حين نطرق باب الجهات الرسمية، ما سنواجهه من تعقيدات روتينية سخيفة هي جلّ ما يملكه أولئك الإداريون، أما نحن العلماء فلا طاقة لنا بكل هذا، لذا علينا السعي لطرق بابًا آخر.

- تقصد بابي أنا.

- بالضبط.. تعاوننا معًا بعيدًا عن الرسميات سيوفر كثير من الوقت والجهد، وأموال طائلة من الأفضل أن نوجهها للجانب البحثي بدلًا من جيوب السادة المرتشون.

صمت (فاروق) لبرهة وبدا وكأنه يفكر جديًا في العرض مما جعل (ألبرت) يبتسم ابتسامة خفيفة كمن أصاب هدفًا.. ابتسامة زالت سريعًا مع تساؤل (فاروق) التالي:

- سيد (ألبرت) ما هو مصدر تمويلكم بالتحديد؟

ظهرت ملامح الضيق على وجه (ألبرت) وزفر مجيبًا:

- ليست جهة واحدة أستطيع الإفصاح عنها، هُم مجموعة من رجال الأعمال الذين يشغفهم دومًا البحث خلف أسرار التاريخ فيدعمون أي مشروع بحثي جاد في هذا الإطار.

- وما هي جنسية هؤلاء السادة؟

- دكتور (فاروق) لا أدري ما جدوى هذه الأسئلة، بماذا سوف تفيدك معرفة

إجاباتها.

- سأستفيد بمعرفة مع مَن أتعامل حتى لا أخطو بقدمي داخل مستنقع يصبح الخروج منه بعدها ضربًا من المحال.

- دكتور (فاروق) لا يليق أن تصفنا بمثل هذه الألفاظ الجارحة خاصة ونحن...

قاطعه (فاروق) بحِدّة:

- سيد (ألبرت) أعتذر عن وصفي غير اللائق وأعتذر أيضًا عن قبول عرضك الذي يُثير ريبتي، ما تسوقه لي من مبررات لم يقنعني ولن يجعلني أنخرط معكم في صفقة أقل ما توصف به أنها صفقة مشبوهة.

صمت (ألبرت) لوهلة محدّقًا بتركيز في عيني (فاروق) قبل أن يقول ببطء:

- يبدو أنك لا تترك لنا خيار يا دكتور.

تساءل (فاروق) بدهشة:

- ماذا تقصد؟

أجاب (ألبرت) بعد أن تحوّلت ملامحه الهادئة إلى ملامح هرمة:

- أقصد أن تعاونك معنا أمر لا يقبل الاختيار، لأننا نحن لا نقبل إجابة بالرفض.

اتسعت عينا (فاروق) ذهولًا وصاح بغضب:

- أتهددني؟

- وهل للكلمات وقعٌ آخر على أذنيك!

- أسمع يا هذا...

- بل اسمع أنت يا دكتور وانصت جيدًا لأن كلماتي تقال مرة واحدة فقط.. البردية التي بحوزتك هي السبيل الوحيد لكشف مكان التابوت المفقود، وأنا ومَن أمثلهم لن نتنازل عن العثور عليه مهما كان الثمن، وفي طريقنا إلى هذا سنزيل من طريقنا أي عقبة تعوقنا.

ثم حدّجه بنظرة حادة مكملًا:

- هل تفهم ما أقول.. أي عقبة.

بهت (فاروق) من كلمات (ألبرت) ولهجته الشرسة، لم يحر جوابًا ولم يجد لديه رد سوى الصمت، فتابع الأخير:

- تعاونك معنا سيفتح لك آفاق لم تكن تدركها، يجعلك تطرق أبواب لم تحلم بها من قبل، في غمضة عين ستحوز من الشهرة وذيع الصيت ما لم تكن حتى تصبو إليه، وستحقق من الثروة ما يغنيك ما بقي لك من عُمر.. أما لو رفضت صاغرًا التعاون فستندم كثيرًا على ما ستؤول إليه الأمور.

انتفض جسد (فاروق) من فرط الغضب، هبّ واقفًا وهو يصيح بثورة:

- إن كنت تظن أن تهديدك هذا سيرهبني ويجعلني عبدًا خاضعًا تحت ولايتكم، فأنت بالتأكيد واهم، وحتمًا لا تعلم مع مَن تتحدث.. (فاروق زيدان) لم يرهب أحد طوال حياته، ولن تجعله تهديداتك ووعيدك يخون أمانته وبلاده.

رفع (ألبرت) كفه أمام وجهه ليستوقفه قائلًا:

- أرجوك يا دكتور هدئ من روعك واعمل عقلك فيما تقول، لا تدع

حماستك المفرطة وثقتك بنفسك الزائدة عن الحد تؤثر على حُسن تفكيرك وتدبيرك لقراراتك.

ثم نهض من جلسته ملتقطًا مظروف صغير من جيب سترته، ألقاه على الطاولة أمام (فاروق) وقال وهو يهم بالمغادرة:

- قرارك لن تتحمل تبعاته وحدك، اختر لنفسك جيدًا.

لم ينتظر ردًا، بل ألقى جملته الأخيرة وانصرف على الفور، ومن بعدها ولمدة دقائق كاملة بدا (فاروق) كما لو كان قدٌ من حجر، بقى صامتًا جامد الجسد إلا من مقلتين تتنقلان بين الباب الذي غادره منذ لحظات ذلك الضيف الثقيل، وبين المظروف الصغير الملقى أمامه على الطاولة..

دون رغبة حقيقية منه امتدت يده إلى المظروف..

لم يدر لماذا يخشي فتحه إلى حد يكاد يصيبه بالشلل؟

ربما لأنه يشعر.. لا بل يعلم.. أن ما بداخله سيكسر عزيمته ويدفعه قسرًا إلى الولوج في ذلك المستنقع.

فتحه مضطرًا لتتسع عيناه في هلع ويهوي قلبه بين قدميه..

كان وجه (سماح) ابنته يقابله في كل صورة التقطت لها على مدار أيام متعاقبة..

صور لها في الجامعة وخارجها..

صور لها بمفردها وبين أصدقائها..

لحظتها عَلِم علم اليقين، أن أي محاولة له للعصيان ذهبت أدراج الرياح، وأن (ألبرت) ومنظمته قد ربحوا الجولة عن جدارة.

(22)

بعد عدة أشهر..

داخل قاعة الاجتماعات الكبيرة، بالتحديد في وسطها تمامًا، طاولة بيضاوية كبيرة اصطفت حولها العديد من المقاعد، شغلتها قامات مسئولي هيئة الآثار المصرية في اجتماعهم الدوري لمتابعة سير العمل في كل ربوع مصر واستعراض آخر المستجدات في مواقع الحفر والتنقيب ومناقشة الأبحاث المقدمة من البعض لطرح أفكار جديدة لاعتمادها.

كان في صدر الجلسة، رئيس الهيئة كبير القيمة والمقام، من حوله كبار رجال الآثار في مصر ومن بينهم (فاروق زيدان) و(شوقي الدريني)، جلسا في مقابلة بعضهما البعض بجوار مقعد الرئيس، تقديرًا لجهودهما في الفترة الأخيرة ونجاحهما الذي لاقى استحسان وقبول الجميع، في الكشف الأثري بقرية صالحجر التابعة لمحافظة الغربية، وما وجداه بداخل تلك المقبرة من كنوز عظيمة القيمة، جعلت صدى ذلك الكشف يمتد خارج الإطار المحلي إلى نطاق العالمية.

استمر الاجتماع عدة ساعات، تمت خلالها مناقشة كل الموضوعات في جدول الأعمال، حتى حانت لحظة الانتهاء فقال رئيس الهيئة بارتياح:

- أعتقد أننا انتهينا من مناقشة كل النقاط المدرجة في جدول أعمالنا لليوم، واستقرينا على خطة العمل المطروحة في الفترة القادمة كما يوافقني السيد أمين سر المجلس.

قالها ونظر إلى هذا الأخير الذي أومأ برأسه في موافقة فاستطرد رئيس الهيئة:

- حسنًا.. إلى هنا بإمكاننا أن نعلن انتهاء الاجتماع.. شكرًا لكم أيها السادة.

تأهب الجميع لمغادرة القاعة، لكن كلمات خرجت عن لسان (فاروق) جعلتهم يتوقفون وينظرون إليه في تساؤل حين قال:

- لحظة من فضلكم أيها الزملاء، لدي أمرٌ هام لأعلنه على مسامعكم في حضرة السيد رئيس الهيئة.

تبادل الجميع النظرات الحائرة بعد كلماته، بينما بادر الرئيس بالسؤال:

- أي أمر هذا يا دكتور (فاروق)؟ لماذا لم تدرجه ضمن جدول أعمال الاجتماع؟!

- معذرة يا سيدي، لكن أردت أن أعلمكم أنتم أولًا بقرار اتخذته وسأقوم به في القريب العاجل بإذن الله.

بدهشة تساءل الرئيس مجددًا:

- قرارا أي قرار؟!

قال (فاروق) بثبات وهو يتابع الأعين اللامعة المحدقة إليه:

- لقد عقدت العزم على إقامة مؤتمر صحفي عالمي في أحد الفنادق الشهيرة، للإعلان عن نتيجة أبحاث تقود إلى كشف ضخم.. كشف بمقدوره أن يغيّر الكثير من تاريخنا القديم.

كفن فجّر قنبلة في صدر القاعة، خيم طائر الصمت على الجميع، حط عليهم الوجوم قبل أن يستوعبوا خطورة ما قيل، تصاعدت همهمات وأحاديث جانبية وأدها رئيس الهيئة حين رفع كفه أمام الجميع صائحًا:

- الهدوء من فضلكم يا سادة، فما يطرحه الزميل (فاروق) جد خطير.

ثم نظر إلى (فاروق) الذي يعرفه حق المعرفة ويعلم عنه وعن سماته الكثير.. ليس (فاروق زيدان) مَن ينساق خلف غروره ويتحدث بما ليس له به علم، ليس (فاروق زيدان) مَن يسعى خلف ضجة إعلامية، أو شهرة وصيت خاص، ليتخذ مثل هذا القرار المفاجئ.. لذا لابد أن في الأمر سرّ خاص لا يعلمه أحد سواه.. سر حاول استبيانه حين تساءل:

- ألم يكن من الأفضل أن نتناقش جميعًا في ما تود طرحه ودراسة جميع جوانبه والاطمئنان إليه قبل الإعلان عنه إلى الإعلام.

- لقد درست الأمر جيدًا، واتجاهي إلى الإعلان عنه بهذاالشكل يعود لأسباب خاصة بي لا داعي لذكرها، لكن أردت فقط دعوتكم لهذا المؤتمر الذي سيقام قريبًا، حتى تكونوا في صدر القاعة وشهودًا على ما سأكشفه إلى العالم أجمع.

قال رئيس الهيئة بقلق:

- لكنك تعلم جيدًا أن وجود مجلس هيئة الآثار المصرية بأكمله يضفي صفة رسمية على هذا المؤتمر، ويلزمنا كجهة رسمية وحكومية بكل حرف يقال فيه، كيف هذا ونحن لا نعلم عنه سوى موعده.. كيف سنبرر هذا للقيادة السياسية لو جانبك الصواب أو لم يحالفك التوفيق.

تدخل (شوقي) في الحوار للمرة الأولى، بدا مكفهرًا محمر الوجه كمن يوشك على الانفجار وهو يقول:

- الرأي ما تقول يا سيدي.

ثم نظر إلى (فاروق) نظرة خاصة فهم الأخير مغزاها وهو يكمل:

- أعتقد أن على (فاروق) مراجعة نفسه والعودة عن قراره، حتى لا

يتسبب في إحراج بالغ لهذه الهيئة، هذا بالإضافة إلى الأذى الكبير الذي سيقع عليه.

احتدت نظرات (فاروق) وقال:

- لقد اتخذت القرار وهو نهائي لا رجعة فيه.

صاح (شوقي) بغضب: لكن يا (فاروق)...

- دكتور (فاروق).

صاح بها (فاروق) مقاطعًا فاحتقن وجه (شوقي) ونفرت عروقه من فرط الغيظ والغضب المكبوت، ليتدخل رئيس الهيئة منهيًا النزاع قبل أن يحتدم:

- كفى يا سادة.. نحن لسنا صغارًا ليتطور بيننا الخلاف إلى هذا الحد.

قالها ونهض من مكانه مكملًا:

- سوف ننهي الاجتماع الآن ونكتفي إلى هذا الحد، وسأعقد جلسة خاصة مع الزميل (فاروق) لدراسة الأمر من جديد.

انفض المجلس بعد كلماته هذه، وبدأ الجميع في مغادرة القاعة حتى خلت، نهض (فاروق) أخيرًا فلحقه (شوقي) وجذبه من ذراعه متسائلًا بحِدّة: هل جننت؟!

نظر (فاروق) إلى يد (شوقي) التي تقبض على ذراعه ببرود لبرهة، ثم مد يده الأخرى لتحرر ذراعه وهو يرد قائلًا:

- بل تعقلت أخيرًا يا (شوقي)، وسأبدأ من الآن في تصحيح الأمر.

تساءل بنفس الحِدّة:

- على حساب مَن؟

أجاب في ثبات:

- أنا على استعداد لتحمل تبعات قراري.

بنبرة تهديد واضحة قال (شوقي):

- لن تكون وحدك في هذا.

- لو أنك تقصد ابنتي التي قمتم بلي ذراعي سابقًا بسببها، هي الآن في مأمن بعيدًا عنكم وعن ألاعيبكم الشيطانية.

ابتسم (شوقي) بسخرية:

- أهذا ما تظنه؟!.. يا لك من ساذج.

ثم مال نحوه قائلًا بعنف:

- أولئك الذين نتعامل معهم لا تقف أمامهم حدود أو مسافات، سيصلون إليك وإليها حتى لو كنتما في جوف الأرض أو أسفل المحيط.

بدا (فاروق) هادئًا لم ترهبه الكلمات وتساءل:

- وماذا سيحدث حينئذ؟

أجاب (شوقي) بحِدّة:

- ستتمنى لو أن لسانك قد قُطع قبل أن تتفوه بحرف عن هذا المؤتمر.

ابتسم (فاروق) وأشار بسبّابته إلى فمه قائلًا:

- لكن لو قُطع لساني ستخسرون أنتم عندها كل شيء.

حدّق إليه (هوقي) مشدوهًا من ثباته فتابع:

- لساني هذا هو السبيل الوحيد لمعرفة مكان البردية.

لوّح (هوقي) بسبّابته في وجهه:

- أنت تلعب لعبة خطرة يا (فاروق).. لعبة لا تدرك عواقبها بعد.

قال (فاروق) بهدوء:

- عليّ تحمل وزر ما اقترفت.

صاح (هوقي) ثائرًا:

- بأن تلقي نفسك ومَن تحب في أتون الجحيم أيها المأفون.

نظر نحوه بتحد:

- إن كنت حقًا ذاهب إلى الجحيم فلن أكون وحدي، بل سأصحبكم جميعًا إلى هناك.

تنهد (هوقي) ثم هز رأسه في استياء وإعياء يائس:

- أنت لا نفع فيك ولا جدوى من محاورتك.. لقد فقدت عقلك يا رجل، وستودي بنفسك ومَن حولك إلى الهلاك.

استدار ينصرف بعد كلماته تلك، لكنه توقف وعاد بوجهه نحوه قائلًا:

- فكر جيدًا فيما ستقدم عليه، حتى لا تندم وقت لا ينفع الندم.

قالها وانصرف بخطوات سريعة غاضبة تاركًا (فاروق) ثابتًا مكانه لبرهة قبل أن يتنهد مرددًا:

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

(تلك هي الحقيقة يا ابنتي أقصها عليكِ بكل تفاصيلها.. لم يكن هدوئي وثبات جناني حينها عن قوة أو بأس، بل عن إيمان بالله.. نعم كنت أعلم أن هلاكي وشيك ولحظات موتي قريبة، لذلك أعددت العدة حتى تجدين أنتِ ومَن ائتمنته عليكِ طريقكما ولا تضلا السبيل.. لقد عقدت العزم على تصحيح المسار، حتى أحفظ لي ولكِ سمعتي دون أن تشوبها شائبة، وإن كنت لا أعفي نفسي من مسئولية الولوج إلى جحر الثعابين والتعامل مع شياطين الإنس التي لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيل، لكن خياراتي كانت محدودة والخوف يمزق قلبي، ليس على حياتي ولكن على حياتك ومستقبلك أنت، أصبحت يا ابنتي بين خيارين أحلاهما مر.. لم أكن أدري ماذا أفعل، كفَن يقبض على الحق بيمينه وعلى الباطل بيساره، ويقف على أرض مظلمة وسط معركة طاحنة لا ناقة له فيها ولا جمل.. معركة بين كباش وأفيال تدهس ما في طريقها وتتطاحن بلا رحمة.. تتشابك قرون الكباش مع أسنة الأفيال وسط نهر من الدماء يزحف رويدًا نحو قدمي.. كأني حارس أمام بؤابة متهدمة لأرض تظللها النجوم).

- ما معنى هذا الكلام؟

نطقت بها (سماح) في دهشة بالغة و(يوسف) ينتهي من القراءة مع آخر صفحة من صفحات الكتاب الصغير أغلقه وأجابها والحيرة تراوده كما تراودها:

- لست أدري.. لكن ما أنا متيقن منه أن السر بين دفتي هذا الكتاب.

- وكيف نهتدي إلى مفتاح اللغز؟

- ربما تجربي طريقتك السابقة علها تُفلِح.

- كيف هذا وسط كل هذه الكلمات؟!

- عليك أن تحاولي أولًا وبعدها...

توقف (يوسف) عن الحديث حين التقطت أذناه صوتًا جعله يجفل.. صوت مفتاح يدور ببطء في رتاج الباب، انفتح على مصرعيه ومن خلفه ظهرت الوجوه الكريهة ل(ألبرت) ورجاله ومعهم (هوقي) الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة ظفر واسعة، ومن خلفهم ظهرت ملامح وجه آخر.. وجه رأوه مرة واحدة منذ قليل.. ذلك الجار اللزج الذي استوقفهما على باب المنزل وادعى الصداقة بقلب مثقل بالخيانة يُبطِن الغدر.

هتفت (سماح) بحنق:

- أنت.

قلّب الرجل شفتيه وراحتيه وهو يقول:

- لم يكن بيدي بديلٌ آخر.

- لم يكن لديك بديل سوى خيانة جارك وأهل بيته.

- جاري هذا رفض مرارًا بيع هذا البيت، رغم ما عرضته عليه من أموال، لقد تعنّت وأصر على الاحتفاظ به رغم عدم حاجته إليه، الآن وبعد الخلاص منك لن يردعني أحد من الحصول عليه.

تقلصت ملامح (سماح) في غضب وهي تنظر له باشمئزاز قائلة:

- لذلك هرعت للاتصال بأسيادك كي تخبرهم عنا.

- ليس هو الفاعل.

قالها (يوسف) بهدوء فنظرت له (سماح) بدهشة شديدة وقالت بينما

(ألبرت) يتابع الموقف بملامح هادئة:

- ماذا تقول؟!

نظر لها (يوسف) مجيبًا:

- لقد أجرى اتصاله بهم، لكنهم كانوا في طريقهم إلينا بالفعل، فالفترة الزمنية لا تسمح لهم بقطع كل هذه المسافة.

اتسعت ابتسامة (ألبرت) الذي قال:

- عظيم يا سيد (يوسف)، رهبة الموقف لم تشتت عقلك عن التفكير.

ثم نظر إلى رجاله قائلًا:

- يعجبني دائمًا هذا النوع.

قبل أن يعود ويوجّه حديثه إليهما:

- الحقيقة أننا وضعنا حول الدكتور (فاروق) أعين لنا في كل مكان، الفضل في هذا يرجع بالتأكيد إلى السيد (شوقي).. لكننا كنا في طريقنا إليكم على كل حال، إن السيد (عزيز) ومساعده الشاب لم يحتملا ضيافتنا طويلًا.

هتفت (سماح) متسائلة بهلع:

- ماذا فعلت بهم؟

- إنهم بخير.. فقط قليل من عمليات التجميل ويصبحا كما كانا.

قالها ساخرًا فهتف (يوسف) محتدًا:

- أيها الوغد.

تدخل (شوقي) في الحوار:

- دعك من هذه المهاترات يا فتى وأخبرني عن ما توصلت إليه.

- نحن لم نعثر على شيء ذو أهمية.

- حقًا.. وماذا عن ذلك الكتاب الذي تحاول إخفاءه عنا منذ دخولنا.

قالها ومد يده قائلًا:

- أعطني الكتاب.

تردد (يوسف) بين الاستسلام بسهولة وتنفيذ رغبة الرجل، وبين المقاومة حتى النهاية، ظهر تردده جليًا فصاح (شوقي) بصرامة محتدة:

- قلت أعطني الكتاب.

قال (ألبرت) بهدوء:

- سيد (يوسف) إن لم تسلم الكتاب على الفور ستدفع هذه الجميلة بجانبك ثمن ترددك.

قالها وألقى نظرة على (سماح) في إشارة إلى جدية تهديده، زفر (يوسف) بحنق ومد يده بالكتاب، تناوله (شوقي) بلهفة وأخذ يقلّب في صفحاته والجميع بلا استثناء يتابعونه بشغف..

استغرق الأخير دقائق عدة وعيناه تجوبان صفحات الكتاب الواحدة تلو الأخرى حتى انتهى منها فصاح محنقًا:

- اللعنة.

تساءل (ألبرت) وقد قطب جبينه في قلق:

- ماذا هناك؟

أجاب (شوقي) بعصبية بالغة:

- هذا الأحمق تلاعب بنا للمرة الثانية ولم يترك دليل على مكان البردية.

هز (ألبرت) رأسه ببطء نفيًا وهو يقول:

- مستحيل.

- اقرأ الكتاب بنفسك حتى تتأكد.

- السر في الكتاب، لكنه فقط يخفى عن عينيك أنت.

ثم وجه بصره نحو (يوسف) و(سماح) قائلًا:

- إنه يحتاج للعين المدربة على تلك الألغاز حتى يكشفه.

تطلع الجميع بعد كلماته نحوهما، بينما وقر في قلب الاثنين أنهما وقعا في مصيدة لا فكاك منها.. مصيدة حاول (يوسف) الخلاص منها بأن قال بسرعة:

- نحن أيضًا لم نجد شيئًا، هذا ما ذكرته منذ البداية.

- بل وجدت يا سيد (يوسف)، أم أنك تظن الدكتور (فاروق) جمعنا هنا دون سبب.

صاحت (سماح) مؤيدة كلام (يوسف):

- لكننا بالفعل لم نجد شيئًا، كل ما عثرنا عليه هو هذا الكتاب بين أيديكم.

قال (ألبرت) بنبرة تهديد:

- لا داعي لتجربة أساليبنا القاسية في الحوار يا سيد (يوسف)، تلك

ستجعلك تتحدث وتخبرنا بكل ما لديك، شئت أم أبيت.

قالت (سماح) مجدداً:

- لقد قلنا لكم...

قاطعها (يوسف) بهدوء:

- كفى يا (سماح)، لا جدوى من كل هذا.. هؤلاء السادة سيحصلون على ما يبغون في النهاية.

نظرت له غير مصدقة استسلامه السريع فقال بحنق:

- انظري حولك جيداً.. نحن محاصرون من كل اتجاه، كأن الظروف كلها تجمعت وتآمر ضدنا، في النهاية لن نخرج من هنا بسلام حتى نُفصح لهم عن كل ما يبغون سماعه، فما الداعي لمزيد من التعذيب والمعاناة.

قال (شوقي) بنفاد صبر:

- قرار حكيم يا (يوسف).. عسى أن ينفذ سريعًا فلا وقت لدينا.

قال (يوسف) مستدركًا:

- ليس بهذه السهولة يا سيد (شوقي).

زوى (شوقي) ما بين حاجبيه، بينما تساءل (ألبرت) وقد فهم مقصد (يوسف).

- ماذا تريد بالمقابل؟

أجاب (يوسف) الذي كان ينتظر تلك الفرصة:

- براءتي يا سيد (ألبرت).. براءتي من تهمة قتل ستكلفني حياتي.. أنا لا

ناقة لي ولا جمل في هذا النزاع، ولا قِبَل لي به.. أقحمني الدكتور (فاروق) فيه دون إرادتي، دون أن يُطمني بالأمر أنا لا أهتم بشأن تلك البردية من الأساس.. لذا براءتي في مقابل ما لدي من معلومات.

صاحت (سماح) بغضب:

- وثأر والدي وأستاذك!

- عن أي ثأر تتحدثين، ضعي قدميك على الأرض بدلًا من التحليق في عالم من الخيال، واجهي الحقيقة مهما كانت مرارتها ولا تنجرفي خلف أوهام كفيلة بإفقادك حياتك وحياتي كما فقد والدك حياته.. لقد كان هو الآخر يحلم أحلام البطولة في مواجهة قوة قاهرة، فماذا آل إليه حاله؟.. أشلاء جثة ممزقة على أرضية شقته، طواها النسيان ولن يتذكرها أحد.

التمعت الدموع في عيني (سماح)، عجز لسانها الذي ألجِم عن توجيه رد إلى (يوسف) يُخرج ما بداخلها من غضب، لم تجد سوى يدها، ارتفعت وهوت بصفعة قوية على وجهه، قبل أن ينفلت لسانها من عقاله صارخًا:

- أيها الوغد الجبان.

لم يحاول (يوسف) رد الإهانة، لم ينبس ببنت شفة ووقف صامتًا، بينما دارت أعين (شوقي) والرجال نحو (ألبرت)، انتظارًا لأوامره بالتدخل، لكن الأخير فاجأهم بل فاجأ الجميع حين رفع كفيه ببطء وصفق بحرارة وهو يقول باسمًا:

- رائع.. بل أكثر من رائع.. أداء مبهر يؤهل كلاكما لنيل جائزة الأكاديمية الأمريكية للسينما، لكنه للأسف لا يكفي.

نظرت (سماح) نحو (يوسف)، بقي على صمته فوجهت نظراتها لـ(ألبرت)

متسائلة:

- ماذا تقصد؟!

- أقصد أن أداء السيد (يوسف) المسرحي، ولعبه دور الرفيق الذي خان القضية لينجو بنفسه، رغم براعته ولا شك، إلا أنه لم ينطل عليّ ولو للحظة واحدة، فمعرفة طبائع البشر جزء من قدراتي، لقد درست شخصية (يوسف) جيدًا بدرجة كافية لأعرف أنه آخر مَن يساوم على مبادئه لتحقيق مكاسب شخصية، هذا ما ارتآه الدكتور (فاروق)، وأنا أثق بشدة في حكمه على الأشخاص من حوله، وإلا ما كان أوكل إليه وصية على هذا القدر من الخطورة.

نظرت (سماح) إلى (يوسف) بخجل واضح متسائلة:

- هل هذا صحيح؟

لم يجبها الأخير بل وجه كلامه إلى (ألبرت) قائلًا:

- يبدو أنني استهنت بقدراتك يا سيد (ألبرت).

انحنى (ألبرت) نصف انحناءة في أداء مسرحي هو الآخر وقال:

- شكرًا.

- ألن ننتهي من هذا الهراء؟

قالها (شوقي) بسخط واضح، فأشار (ألبرت) نحوه قائلًا: معك حق.

ثم أشار مرة أخرى لكن نحو رجاله هذه المرة، تقدم الرجال نحو (سماح) وشرر الشر يستطير في أعينهم، حاول (يوسف) إيقافهم بكل ما أوتي من قوة، تكالبوا عليه فقيد ثلاثة منهم حركته المحمومة والبقية هاجموها

بشكل مدروس.. قيّد اثنان منهم حركتها، بينما مد الثالث يده يفك أزرار قميصها كاشفًا عن جزء من صدرها وهي تصرخ في لوعة تقابلها صرخات (يوسف) الثائرة، أخذ يكيل اللعنات والسباب والوعيد لهم لو مسوها بسوء، رفع (ألبرت) يده في صمت ليتوقف رجله عن ما يفعله، بينما الأول ينظر إلى (يوسف) قائلًا:

- كفانا من هذا العبث، هيا يا سيد (يوسف)، أم أن لديك حيّل أخرى.

صرخ (يوسف) بغضب:

- لقد فرُغت من الحيّل أيها الوغد.

- إذن دعنا ننتهي وأخبرني بما لديك.

جزّ على أسنانه في غضب ثم قال:

- سأخبركم بكل شيء لكن اتركوها أولًا.

أشار (ألبرت) بطرف عينه فحلّ رجاله قيودها، اندفعت بعيدًا عنهم تحتمي خلف جسد (يوسف) وهي تعقد أزرار قميصها التي انحلّت كي تستر ما كُشف من جسدها بينما الأخير يقول:

- السر في المقطع الأخير من رسالة دكتور (فاروق)، لكنكم عجزتم عن فهم الرمز الذي يقصده.

- عن أي جزء تتحدث؟

- عن صراع الأفيال وسط نهر من الدماء، والبوّابة التي تحرس النجوم.

- وماذا يقصد بهذا الوصف؟!

- جزيرة فيلّة هي ما يقصدها دكتور (فاروق)، أما نهر الدماء فهو النيل

الذي تشقه الجزيرة، والبؤابة هي المعبد نفسه.

نظر (ألبرت) إلى (شوقي) فقال الأخير:

- أعتقد أنه التفسير المنطقي الوحيد لهذه الكلمات الملغزة.

- ليكن الأمر كذلك، ولنذهب جميعًا إلى هناك.

ثم أشار بسبابته نحو (يوسف) مكملًا بوعيد:

- لكن لو كنت تكذب مرة أخرى، أو تحاول تضليلنا، ستدفع أنت ورفيقتك ثمن هذا غاليًا كما دفعه أستاذك من قبلك.

ثم أشار إلى رجاله قائلًا بحزم: أحضروهما.

تقدم الرجال نحوهما كذئاب جائعة برزت أنيابها، كبلاهما رغم مقاومتهما العنيفة وقادوهما إلى الخارج حيث كانت تنتظرهم شاحنة، ألقوهما بداخل صندوقها الخلفي مكبلين، قبل أن تنطلق السيارات جميعها إلى وجهة غير محددة..

* * * * *

(24)

على مصطبة حجرية داخل محبسه المظلم إلا من كوة صغيرة تسللت عبرها بعض من أشعة القمر الفضية، تمدّد (ددف رع) وقد غطى وجهه بساعده بعد أن تكالبت عليه الهموم، أمام عينيه المغلقتين مرت أحداث متعاقبة مما مضى، وصور من ما سيلاقيه من هول قادم إليه كثعبان سام يزحف ببطء على رقبته متحينًا لحظة الانقضاض.. ذلك الثعبان الأرقط الذي ظن يومًا أنهم شركاء في لعبة واحدة يأمن كل منهما جانب الآخر..

لقد تفوق (أمازيس) في هذه اللعبة بلا منازع.. أحكم خدعته وكان سباقًا إلى عقل الملك، لم تصمد أمامها كلماته قط.. عليه الآن أن يتجرع مرارة الهزيمة بصبرٍ وجلَد، ويأمل أن تجد كلماته صدى لدى الملك، علّه يجد مخرجًا لما هو فيه في قادم الأيام.. انتبه من أفكاره على صوت خطوات حازمة تقترب، فُتح الباب وطل عبره وجه ثعبانه اللدود.. نهض من مكانه معتدلًا وهو يصيح بدهشة:

- (أمازيس)!

افتر ثغر (أمازيس) عن ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- أظن أن وجهي هو آخر وجه تتوقع رؤيته الآن.

تماسك (ددف رع) أو حاول أن يبدو كذلك وهو يقول:

- لا تنتشي بنصرك يا (أمازيس)، لا يزال الصراع بيننا لم ينته بعد.

تطلع (أمازيس) إلى القبو الرطب حوله وقال بتشف:

- أتظن ذلك؟

وقف (ددف رع) أمامه بثبات مجيبًا:

- إن هي إلا جولة واحدة ربحتها، لكن صدقني إن النهاية ستكون مختلفة.

- ما أراه الآن نهايتك أنت.

- ربما، لكنني لن أذهب وحدي في صمت وأتركك تنعم بكل ما تصبو إليه.

ثم قرّب وجهه منه قائلًا:

- إن كنت ذاهب إلى الجحيم لا محاله فسأصحبك معي إلى هناك.

اندهش (أمازيس) في قرارة نفسه من ثبات الكاهن وثقته المفرطة فيما يقول، وهو الذي توقع انهياره التام وسماع توسلاته واسترحامه فقال وقد بدأ القلق يتسرب إلى نفسه الواثقة:

- مهما ادعيت كذبًا الآن لن يصدقك أحد.

- ومَن قال أنني سأدعي كذبًا.. لقد طارت رأسي بالفعل ولم يعد لدي ما أخسره، لكن أنت لديك الكثير.

- كيف؟

- سأخبر الجميع بالحقيقة، وعلى رأسهم الملك (واح إيب رع).

- قلت لك سابقًا لن يصدقك أحد.. إن هو إلا كلامٌ مُرسَل.

- وماذا عن الرسائل المتبادلة بيننا، والمراسلات بيننا وبين قادة الحاميات المتاخمة للحدود.

انعقد ما بين حاجبي (أمازيس) وهو يستمع إلى كلماته، فابتسم (ددف رع) في تشف، لكن ابتسامته زالت سريعًا عن وجهه، حين افتر ثغر (أمازيس) عن ابتسامة ذئبية خالصة وقال:

- لا زلت مخادع كعادتك يا سيدي الكاهن.. لكن براعتك لن تضاهي رجل قاد الجيوش في معارك شتى.

ثم قرّب وجهه منه هامسًا:

- تلك المراسلات التي تتحدث عنها تبخرت من الوجود، ووُضع مكانها مراسلات بينك وبين البابليين.

اتسعت عينا (ددف رع) في ذعر، بينما انطلقت ضحكة (أمازيس)

الساخرة تجلجل في فضاء المكان، قبل أن يهدأ ويقول:

- في الحقيقة لقد جئت إليك اليوم كي أودعك، فما سيحل بك غدًا يشيب له شعر الوليد.

غامت الدنيا في وجه (ددف رع)، لم يقو على الوقوف أكثر فخرّ متهدمًا على المصطبة الحجرية بينما (أمازيس) يستطرد:

- لكن إن كنت تريد ميتة سريعة دون عذاب.

استل من طيات ملابسه حبل قصير ألقاه أمامه وهو يكمل:

- يمكنك إنهاء حياتك الآن بكرامة.

قالها واستدار مغادرًا، ترك (ددف رع) وحده وقد ادلهمت الدنيا من حوله ووهجت داخل قلبه الآلام..

بعد أن شعر أن النهاية دانية..

بل أقرب إليه من نفس يلتقطه في صدره.

* * * * *

(25)

اجتاز الجميع البوابة الخارجية، دلفوا إلى المرسى النهري السياحي الضخم الذي اكتظ على مدار اليوم بمختلف الجنسيات من السياح الذين يعشقون أجواء أسوان الساحرة في هذا الوقت من العام.. كان (يوسف) و(سماح) يسيران وسط (ألبرت) و(شوقي) ورجالهما بهدوء، لا يبدو عليهما أن الأمر يتم دون رغبتهما، وقفا صامتين بينما (ألبرت) يدبّر أمر رحلة نيلية لهم وقت الغروب.. لماذا الغروب؟.. لأنه الوقت الأمثل لهم بكل

تأكيد، حيث ينخفض عدد السياح إلى الحد الأدنى وتصبح الجزيرة هادئة إلى حدٍ كبير، مما يسهّل مهمتهم التي لا تحتاج إلى لفت الانتباه أو ضوضاء وصخب.

استمر (ألبرت) في حديثه مع منسّق الرحلات بالغ الحماسة، التقطت أذنا (يوسف) حديثه عن جزيرة فيْلة التي يطلبها (ألبرت) فتدخل في الحوار قائلًا:

- عذرًا لكننا لن نذهب إلى جزيرة فيْلة.

نظر له (ألبرت) بدهشة لوهلة ثم ترك الشاب وعاد إلى (يوسف) متسائلًا:

- ماذا تقصد؟

- المكان المقصود هو معبد فيْلة لكن ليس جزيرة فيْلة.

قبل أن يتساءل (ألبرت) مجددًا تساءل (شوقي):

- هل أنت واثق أن هذا ما كان يقصده (فاروق)؟

أومأ برأسه في ثقة:

- بكل تأكيد.

تساءل (ألبرت) بنفاد صبر:

- هل لي أن أفهم ماذا تقصدان؟

قال (شوقي) هازئًا:

- حين اكتمل بناء سد أسوان في بداية القرن الماضي،أصبحت جزيرة فيْلة غارقة جزئيًا نتيجة حجز المياه، ومع بداية بناء السد العالي أصبحت الجزيرة في خطر حيث تم احتجازها بين السدين الكبيرين، مما سيؤدي بها

وبما عليها من آثار ومعابد إلى الغرق.. لذلك قامت الحكومة المصرية بعمل حملة إنقاذ للجزيرة وتم نقل ما عليها من معابد وآثار إلى جزيرة إجيليكا القريبة، لذا فهدفنا الآن جزيرة إجيليكا حيث يقبع معبد الإلهة إيزيس أو ما يسمى بمعبد فيلة.

تفهّم (ألبرت) الأمر وعاد يتمم ما كان يفعله، بينما التقطت عينا (يوسف) قاربًا آخر يستعد للمغادرة.. قاربًا استرعى انتباهه بشكلٍ خاص.

أوشكت الشمس على المغيب، كادت تختفي خلف الأفق،ألقت بأشعتها الحمراء القانية على صفحة النهر الهادئ وتجلّت براعة المشهد حين أصبح قرص الشمس الدامي خلفية خلابة لمعبد انتصب أمامهم على مرمى البصر وسط جزيرة إجيليكا التي تبعد خمسمائة متر عن جزيرة فيلة، بينما هُم يستقلّون قارب صغير يقترب بهم ببطء وتؤدة إلى شاطئ الجزيرة.

على الرغم من روعة المشهد الذي يضفي على القلب سكينة وهدوء، ويثير نوازع العاطفة والشغف.. مشهد يحلم به كل عاشق، ويلهم كل ذي موهبة كالشعراء والرسامين.. إلا أن قلب (سماح) ارتجف بين ضلوعها وهي تتخيّل ما يمكن أن يحدث لهما حين يعثر هؤلاء على بغيتهم، رسم عقلها مئات الصور المفزعة لنهاية دامية لا تبتعد كثيرًا عن النهاية التي شهدها والدها، بل دون أن تشعر وجدت نفسها تقترب ببطء من (يوسف)، تتلمس كفه كأنها تستمد منها الدفء والأمان.. لم يعد بالنسبة إليها غريب بغيت قتله في بادئ الأمر، أصبح دون أن تشعر أقرب إنسان إليها، الوحيد الذي تشعر في حضرته بالطمأنينة.. عجيب أمر الإنسان، ما بين طرفة عين وانتباهها يتبدّل حاله من النقيض إلى النقيض.. هذا بالضبط ما تشعر به الآن، دون أن تدري أن هذا أيضًا ما غرق (يوسف) في لُجته، كان كل ما يشغل باله في هذه اللحظة هي (سماح).. تلك الفتاة التي صوّبت المسدس يومًا تجاه

رأسه وفي عينيها بغض لم يره من مخلوق قبلها، ثم تلاشت تلك النظرة وحلّت محلها نظرات أخرى.. نظرات يجهل تفسيرها، أو بالأحرى يخشى تفسيرها.. أصبح شغله الشاغل الآن هو كيف يحميها.. كيف يخرجها سالمة من كل هذا الشقاء؟ وجد نفسه على استعداد لدفع حياته ثمنًا لهذا، وكم حيّره هذا الشعور، وتساءل بينه وبين نفسه، هل هذا بسبب أنها ابنة أستاذه فحسب؟ أم أن قلبه أخيرًا وجد ضالته؟.. ذلك الحصن المنيع الذي لم يقترب منه أحد.. ذلك القبو الموصد الذي ظل خاليًا طوال تلك الفترة حتى حسبه واقع أبدي.. هل حلّت هي أصفاده وسمحت للنور أن يبدّد ظلامه الذي ظن أنه سيدوم إلى الأبد؟

دون أن يشعر وجد يده تطبق على كفها، تحتويها بحنان افتقده هو ربما أكثر منها، ودامت جلستهما هذه حتى وصل القارب إلى الجزيرة الصغيرة..

هبطوا إلى الجزيرة و قارب قرص الشمس على الاختفاء، بدأت الموجودات تقبع في الظلام رويدًا رويدًا وهُم لا يتحركون نحو المعبد، بدا التوتر على وجه (شوقي) ففقد قدرته على الصبر وتساءل بضيق:

- ما الذي يؤخرنا إلى الآن؟ ألا ننتهي من الأمر سريعًا؟!

بدا (ألبرت) هادئًا كعادته وهو يُجيب:

- صبرًا يا سيد (شوقي)، لم يكتمل نصاب الأمر بعد.

تساءل مرة أخرى بنفاد صبر:

- ومتى يكتمل؟

دون أن ينظر أجاب:

- قريبًا.

استمروا في وقفتهم الساكنة لدقائق أخرى، اقتربت خلالها (سماح) من (يوسف) هامسة:

- ماذا سيحدث لنا؟

لم تتلق إجابة فتساءلت مجددًا بصوتٍ مرتجف:

- هل سيقتلوننا؟

أجاب (يوسف) وهو يمسح المكان بعينه:

- ربما.

شهقت في هلع فنظر نحوها وحدّق ربما لأول مرة في عينيها قائلًا:

- أيًا كان ما سيحدث الآن فهو قدرنا، ولا يوجد مخلوق يهرب من قدره.

شعر بجسدها يرتجف خوفًا، فرسم ابتسامة باهتة على وجهه وقال بصدق:

- سأدافع عنك بحياتي، لن يصيبك مكروه طالما أنا على قيد الحياة.

لم تدر لم بثّت كلماته الطمأنينة إلى قلبها.. ربما لأنها استشعرت صدق كلماته أو لأنها رأت في عينيه ما لم يُفصح عنه لسانه.. لكنها شعرت بالقوة تسري في عروقها والثبات يدبّ في أوصالها جزّاء تلك الكلمات.. فقط بضع كلمات.. حقًا إن للكلمات سحر يغلب قوة السلاح..

من بعيد ومن خلف جدار المعبد الكبير ظهرت مجموعة من الأجساد القاتمة تُلقي بظلالها السوداء على الأرض، أخذت تقترب منهم بتؤدة و(ألبرت) يقف كما هو بنفس سمت الهدوء، عاقدًا ذراعيه وينتظر حتى تلاقي الجمعان فتحرك الأخير وقد بدت عليه مظاهر الاحترام لذلك الغريب

وهو يقول:

- في الموعد تمامًا كما أشرت يا سيدي.

كان الغريب كما بدا من هيئته، في العقد السادس من العمر.. ممتلئ الجسد، قصير القامة.. أشيب الشعر.. ذو نظرات حادة متسلطة وحاجبين معقودين على الدوام.. نظرات رجل اعتاد أن يأمر فيطاع..

حدّق بهم للحظات ساد فيها الصمت، قبل أن يتساءل (شوقي) وقد غمرت الدهشة ملامحه:

- مَن هذا بالضبط؟!

رمقه (ألبرت) بنظرة حادة وكأنه أراد حز عنقه، ثم أجاب وهو يضغط على حروف كلماته ليجعلها باترة:

- إنه السيد (ديفيد)، أحد مؤسسي المنظمة وأحد كبار رجالها، حضر خصيصًا إلى مصر مع اقترابنا من الكشف عن مكان البردية، ليشهد بنفسه هذا الحدث العظيم.

بدت أمارات الفهم على ملامح (شوقي)، حدّق في وجه (ديفيد) الصارم، ثم قال بنبرة مختلفة سادها الخوف والاحترام:

- على الرحب والسعة.

أخيرًا تحدث (ديفيد) قائلًا بحزم:

- لا وقت لإضاعته.. هيا نبدأ على الفور.

أنهى جملته فتحرك الجميع نحو مبنى المعبد الشامخ حتى قاربوا بوابته، توقف (يوسف) فجأة بشكل جعل الجميع يتوقف ناظرًا إليه و(ألبرت)

يتساءل بحِدّة:

- لم توقفت؟

أجاب (يوسف) بهدوء:

- لأن المعبد ليس هدفنا.

صاح (هوقي) بانزعاج:

- ماذا؟!

(هوقي) وقد غمرت الدهشة ملامحه:

- مَن هذا بالضبط؟!

رمقه (ألبرت) بنظرة حادة وكأنه أراد حز عنقه، ثم أجاب وهو يضغط على حروف كلماته ليجعلها باترة:

تساءل (ألبرت) وقد ساءه الموقف أمام أعين (ديفيد) ورجاله فأجاب (يوسف) وهو يُشير بسبابته نحو مكانٍ آخر:

- هنا.

- كشك تراجان.

صاح بها (هوقي)، فأومأ برأسه إيجابًا وقال:

- نعم.. كشك تراجان أو مضجع فرعون، ذلك الأثر الذي بناه الإمبراطور الروماني تراجان تخليدًا لذكراه على شكل حجرة مستطيلة، يحيطها أربعة عشر عمودًا ذات التيجان المزهرة، لكنها دون سقف أو أرضية، ويرجح العديد من الأثريين أنها غير مكتملة البناء حيث لم تكتمل النقوش بداخلها

كذلك.

- وما الذي يجعلك متأكد من أن كشك تراجان هو ما قصده (فاروق)؟

تنهد (يوسف) وأجاب مردداً مقطع من رسالة أستاذه:

- كحارس أمام بوّابة متهدمة لأرض تظللها النجوم.

برقت عينا (هوقي) وصاح بلهفة:

- هذا صحيح.

عدلوا عن الدخول إلى المعبد، ساروا بمحاذاته حتى وصلوا إلى كشك تراجان فحدّق به (ألبرت) قبل أن يلتفت إلى (يوسف) قائلاً:

- المبنى له عدة بوّابات.

أومأ (يوسف) برأسه:

- نعم.. ثلاث بوابات، اثنتان جهة الشرق والغرب، وواحدة صغيرة جهة الشمال.

صاح (ألبرت) بغضب وقد نفد صبره:

- إذن أي واحدة يقصدها ذلك اللعين؟

ابتسم (يوسف) كأنما يسعى لاستفزازه أكثر وسط نظرات السخط من الجميع والدهشة البالغة من (سماح):

- يقصد تلك المواجهة للمعبد وتحديداً العمود جهة اليمين.

هنا تساءلت (سماح) نفسها والحيرة والعجب يغمرانها:

- كيف عرفت كل هذا؟!

أجاب في بساطة:

- من رسالة والدك، أم أنك نسيت.. كفن يقبض على الحق بيمينه.

تقدم (ألبرت) ووقف قبالة البوّابة وأشار بسبابته إلى رجاله آمرًا:

- سنحفر هنا يا رجال.

تدخّل (يوسف) مجددًا قائلًا:

- خطأ مرةً أخرى يا سيد (ألبرت).

كاد رأس (ألبرت) ينفجر من فرط الغضب، التفت مجددًا نحو (يوسف) الهادئ المبتسم صائحًا:

- اللعنة عليك.

لم يبال (يوسف) بصياحه وتحدث على الفور:

- حين تحرس بوّابة لا تقف في مواجهتها كما تفعل الآن، بل توليها ظهرك كي تذود عنها.

شعر (ألبرت) بحماقته ونظرات (ديفيد) الملتهبة تخترقه،صاح بعصبية وهو يُشير إلى رجاله:

- العمود الآخر.. هيا تحركوا بسرعة.

انصاع الرجال لأوامره، استمروا لدقائق في الحفر بلا كلل والجميع من حولهم يترقب بمشاعر متضاربة.. (ديفيد) ورجاله يتملكهم الحذر.. (شوقي) يمتلئ باللهفة وأحلام الثراء.. (سماح) يغلبها الوجل فبردت أطرافها وتصاعدت أنفاسها اللاهثة رعبًا حتى بدت كعصفور مبتل في ليلة عاصفة، بينما (يوسف) يحدّق في الأرجاء بتوتر كفن ينتظر شيئًا ما وهيك

الحدوث. طال الأمد وألجم الصمت الألسنة وتصاعدت حدة التوتر جمر يحرق أعصاب الجميع بلا رحمة.. إن هي إلا لحظات فاصلة تفصل بين الوهم والحقيقة.. بين الحياة والموت.

صيحة واحدة جذبت اهتمام الجميع.. صيحة يائسة هتف بها أحد الرجال بغضب:

- اللعنة.. لا يوجد شيء هنا.

كانت تلك الصيحة نقطة الفصل.. صيحة تلاشت على إثرها الابتسامة الواثقة عن وجه (ديفيد)، سقطت معها حصون هدوءه وثباته حين رفع عينه إلى (ألبرت) قائلًا في غضب ساحق:

- ما هذا؟

لحظتها تحوَّل الجميع نحو (يوسف) و(سماح)، بينما (ألبرت) يتقدم منهما صائحًا بثورة:

- كنتما تتلاعبان بنا.

حاول (يوسف) الحفاظ على ثباته وقال:

- بل الدكتور (فاروق) مَن تلاعب بنا جميعًا، وربما عَمِد إلى وضع تلك المذكرات حتى يضللنا ويضللكم بينما أخفى البردية في مكانٍ آخر.

- كفى هراءً.. إن لم تكن البردية في هذا المكان، فأين؟

ثم أخرج من ملابسه مسدسًا وجهه نحوهما صارخًا:

- أين؟

لم يكد صياحه يكتمل حتى انطلق صياح آخر من أحد الرجال:

- اللعنة.. إنه كمين.

من حولهما ومن عدة جهات كانت مجموعة من الأجساد القاتمة تقترب ببطء وثبات لمحاصرتهم، ومعها تصاعد صوت هتاف صارم:

- استسلموا الآن.. لا يوجد منفذ واحد للهرب من الجزيرة.

لم يعد هناك مجال للشك والتساؤل حول هوية هؤلاء، فقد جاءوا من أجلهم.. أشهر الرجال أسلحتهم في تحفز وهُم يشكّلون مربعًا دائرة حماية حول (ديفيد)، يبحثون بأعينهم عن طريق الهروب، بينما (هوقي) يصرخ مولولًا وقد انهارت أعصابه تمامًا، في وقت ظل فيه (ألبرت) مثبتًا عينيه على (يوسف) و(سماح) وكأن لا شيء آخر يشغله عن الانتقام منهما..

- اللعنة على كلاكما وعلى ذلك المأفون العنيد.

صاح (يوسف) محذرًا:

- لقد انتهى الأمر ولا جدوى من ما تفعله.. استسلم الآن.

قال في حقد:

- لقد انتهى بالفعل.. لكن طلقة أو طلقتين لن تصنع فارقًاوسط طلقات ستنهمر من كل صوب في هذا الظلام.

راقب (يوسف) ملامحه جيدًا.. عيناه الصارمتين.. يده القابضة بقوة على سلاحه.. هذا رجل لا يهزل.. ملامحه تشي بذلك.. ملامحه الثابتة المفعمة بالتصميم تنفي عنه شبهة الجنون أو انفلات الأعصاب، بل هو يعلم جيدًا ما يفعله ويمتلئ إصرارًا عليه.

عليه اتخاذ القرار الأصوب.. المسافة قريبة فمن المستحيل أن يخطئ التصويب.. الهجوم عليه خيار غير متاح لأن طلقة طائشة بإمكانها إصابة

(سماح) المرتعدة بجواره..

جمّد عيناه على مبالبة (ألبرت)، استشعر اعتصارها زناد المسدس، استدار موليًا ظهره إليه قاطعًا الطريق بين فوهة سلاحه و(سماح) التي صرخت ملتاعة حين انطلقت الرصاصة الغادرة.. صوتها دوى في الأرجاء وتردد صداها بعيدًا كطلقة مدفع، ومعها فُتحت أبواب الجحيم على الجميع، من كل حدبٍ وصوب انهمرت الطلقات تنز في الهواء باحثة لها عن مستقرٍ حي، بينما (يوسف) الذي أغرقت الدماء القانية ظهره، سقط أخيرًا بين يدي (سماح) وعيناه معلّقتين بوجهها المرتعب وبرودة شديدة تدبّ في أوصاله وتزحف بسرعة إلى رأسه الذي تبخر وعيه تدريجيًا مع إظلام عينيه..

حتى ساد السكون.

* * * * *

(26)

ضباب كثيف قاتم غرق فيه يانسًا، أحاط بكل الموجودات من حوله حتى عجز عن رؤية موطئ قدم.. ضباب تغلغل إلى نفسه فاكتنف أفكاره حتى كاد يتنفسه.. ثقل رهيب جثم على صدره جعله يشهق متألمًا، زفر كأنما روحه نفسها تنساب مودعة جسده إلى غير رجعة.. أراد أن يصرخ بذعر، يستحلفها ويستجديها أن تبقى ولا تفارقه، لكن حتى الصراخ خانه.. أبى أن يفارقه فاختنق به، أحتُبِس داخله ليكون رفيقه الوحيد نحو العالم الآخر لولا تلك اليد القوية.. يد تعرف طريقها جيدًا، قبضت على معصمه وجذبته نحوها، ورويدًا انقشع الضباب الثقيل عن وجه يعرفه خير المعرفة.. وجه جعله يهلل فرحًا:

- أستاذي.

كانت ملامح (فاروق) هادئة رصينة كعادته وهو يقول:

- لم يحن الوقت بعد.

قال (يوسف) بصدق:

- سامحني يا أستاذي فقد خذلتك.

عاد (فاروق) ينفي القول:

- ليس بعد.

قال متألمًا:

- لقد حاولت إبعادها عن الخطر قدر استطاعتي.

- وقد فعلت.

بحزن قال (يوسف):

- أنت ضحيت بحياتك من أجلها.

رد (فاروق) بعطف:

- وأنت افتديت حياة ابنتي.

- كان السر عصيًا.

- لكنك اكتشفته.

قال (يوسف) بضيق:

- سيموت السر معي.

بحقة رد (فاروق):

- قلت لك ليس بعد.

تساءل (يوسف) بحنق:

- كيف وأنا وسط هذا الظلام؟

أجاب (فاروق) بحماس ليبث القوة في عروقه:

- حرر نفسك من الظلمة، أخرج من دائرة الضباب تجد النور.

حاول (يوسف) تحرير قدمه لكنها كانت راسخة كالطود، قال يائسا:

- لا أستطيع.

منحه استاذه ابتسامة واثقة:

- بل تستطيع.

ثم مد يده مجددًا، التقط كف (يوسف) المترددة وسحبه معه إلى النور..

تذكر انك حملت رواية تابوت العهد حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات.

فتح عينيه في وهن واستغرق برهة في استكشاف مكانه الجديد، لكن ما بث الطمأنينة في قلبه كانت يد تقبض على كفه في حنو، وصوت رقيق التقطته أذناه يقول:

- حمدًا لله على سلامتك.

تساءل (يوسف) بصوت ضعيف مبحوح:

- أين أنا؟

أجابت (سماح) وابتسامة سعادة ترتسم على وجهها:

- نحن في مستشفى أبو سمبل الدولي.. لقد تم نقلك إليه على وجه السرعة، وخضعت لجراحة عاجلة استمرت ما يقارب الثلاث ساعات كاملة لإخراج الرصاصة من ظهرك وعلاج التهتكات التي وقعت بسببها.

- وأنتِ؟!

نظرت له باستفهام فتساءل مجددًا:

- هل أنتِ بخير؟

- أنا في خير حال بفضلك، بعد أن أنقذت حياتي.

- لقد وعدتك ألا يصيبك مكروه.

ابتسمت بخجل وخفضت رأسها وهي تقول:

- كدت أموت هلعًا عليك.

تطلع إلى وجهها الذي غزته الحمرة متسائلًا:

- حقًّا؟

بدا الارتباك جليًا على ملامحها، لم تُجب وإنما أدارت دفة الحديث قائلة:

- لم ينقذنا سوى تواجد عناصر الشرطة على الجزيرة في الوقت المناسب.

تمتم بهدوء:

- حمدًا لله.

نظرت له بشك قائلة:

- يبدو لي أنك كنت على عِلم بذلك.

أتى الجواب من خلفها:

- بالطبع كان يعلم.

نظرت إلى المقدم (محمد شامل)، دلف إلى الغرفة صحبة رجل آخر بدا أكبر سنًا.. أسمر البشرة.. طويل القامة.. ذو كتفين عريضين وشعر مجعّد وخطه الشيب، قام الأول بالتعريف قائلًا:

- العميد (منذر عثمان) من الأمن الوطني.

حيّا العميد (منذر) (سماح) بإيماءة من رأسه، ثم نظر إلى (يوسف) قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك.

كانت تلك المرة الأولى التي يراه فيها (يوسف)، نظر له في دهشة حملته على الابتسام قائلًا:

- لا داعي للدهشة، نحن على عِلم بالأمر كله منذ البداية.

حدقت به (سماح) في ذهول صائحة:

- كنتم على عِلم بالأمر منذ بدايته! كيف؟!

ثم التفتت نحو (يوسف) مكملة تساؤلاتها التي حيرتها:

- وأنت كيف علمت بوجودهم على الجزيرة؟!

ابتسم (يوسف) ابتسامة باهتة وضغط على شفته السفلى في وهن ثم أجاب:

- لقد رأيت المقدم (محمد)، كنت قد التقيته سابقًا في قسم الهرم ورأيته يستقل قارب آخر وسط عدد من الرجال من على نفس المرسى الذي كنا عليه.. نظرته إليّ حينها أكدت لي أنهم يراقبوننا جيدًا.

تدخّل المقدم (محمد) في الحوار:

- ورأيتني مرةً أخرى بجوار المدخل الرئيسي للمعبد.. كنا نحاصر المكان بعد أن أخلينا الجزيرة من جميع السائحين والعاملين.

قالت (سماح) وهي تنظر إلى (يوسف):

- لذلك كنت تطيل مدة بحثهم عن الصندوق وظللت تتلفت حولك طوال الوقت.

- كنت أنتظر لحظة تدخلهم.

قال العميد (منذر):

- أما بخصوص عِلمنا بالأمر منذ بدايته فتلك قصةٌ أخرى.

ثم التقط نفسًا عميقًا واستطرد:

- لقد وصلتنا رسالة بالبريد من الدكتور (فاروق) رحمه الله، تحديدًا في اليوم التالي لمقتله، سرد بها كل ما فات من علاقته بتلك المنظمة وقبوله مرغمًا العمل معهم حتى يستطيع تأمينك بالسفر خارج البلاد، وبعدها انقلابه عليهم وتحديد موعد مؤتمر صحفي للكشف عن نتائج أبحاثه وتهديدهم له بالقتل، حتى الموعد الذي حدده للقاء رجلهم في منزله ليلة الجريمة ذكره في رسالته..

قاطعه (يوسف):

- ذلك الموعد الذي دعيت إليه دون أن أعرف طرفه الآخر.

- لم يكن بإمكان الدكتور (فاروق) أن يخبرك.. كان الأمر معقدًا جدًا وأنت كنت بعيدًا عن الأحداث كلها ولا تعلم عنها حرف واحد.

انتبه (يوسف) إلى شيء ما فتساءل:

- تقول أن الرسالة وصلتكم في اليوم التالي للجريمة، لماذا إذن احتجزتموني ثلاثة أيام كاملة قيد التحقيق قبل أن أتمكن من...

توقف عن التساؤل وقد بدا عليه الفهم، فتابع العميد (منذر):

- قبل أن تتمكن من الهرب، أو بتعبيرٍ أدق، قبل أن نسمح لك نحن بالهرب.

تساءلت (سماح) بدهشة:

- لماذا؟!

- لأننا أردنا الإيقاع بأفراد ذلك التنظيم، خاصةً حين ألقى لنا دكتور (فاروق) بشكوكه حول خلفياتهم ومَن ينتمون إليهم، ولأننا علمنا أنهم سيظلّون داخل مصر بغية العثور على البردية المفقودة التي أخفاها والدك ببراعة ولم يُعلمهم عن فحواها شيئًا.

- إذن كنت أنا الطُعم كي تستقطبوهم من جديد.

- هذا صحيح.

تساءلت (سماح) بحنق:

- وماذا لو كان دفع حياته ثمنًا لهذا؟! لقد كدت أنا نفسي أقتله في بادئ الأمر بل وصوبت مسدسي إلى رأسه.

- كنا نتابعكم عن كثب.

ثم ابتسم قائلًا:

- هل تذكرين ذلك الرجل الذي قرع باب شقتكم القديمة ليطمئن؟

- هل هو...؟

أومأ برأسه إيجابًا:

- نعم.. إنه أحد رجالنا، كما أنك ما كنت لتقدمي على جريمة قتل أبدًا.

مضى هذا أن البردية بحوزتكم.

تنهد العميد (منذر) وهز رأسه نفيًا:

- كلا للأسف.. لقد ضاع أثرها ودُفن سرها مع الدكتور (فاروق).

قالها ومال مربتًا على كف (يوسف)، ثم قال باسمًا:

- مرة أخرى حمدًا لله على سلامتك، وفي القريب العاجل تتعافى كي تخرج وتنعم بحريتك.

استدار مغادرًا الغرفة هو والمقدم (محمد)، قبل أن يتوقفا حين قال (يوسف):

- لحظة من فضلك.

التفتا إليه فتساءل:

- ماذا عن دكتور (عبد العزيز) ومساعده؟!

ابتسما والعميد (منذر) يُجيبه:

- اطمئن، لقد أطلقنا سراحهما وقد تعافيا تمامًا.

ثم تذكر شيئًا فأكمل وهو ينظر إلى (سماح):

- بالمناسبة، لقد ألقينا القبض على جاركم السمج هذا بتهمة التعاون مع منظمة إرهابية.

ابتسمت (سماح) وهما يغادران، التفتت إلى (يوسف) الذي تنهّد بارتياح وغمغم قائلًا:

- حمدًا لله.

هزت رأسها غير مصدقة نجاتهما وبراءته، ونهاية الأمور كلها على هذا النحو ثم قالت:

- كانت رحلة عصيبة.

رد بابتهاج:

- لكننا قطعناها معًا حتى رسونا على شاطئ النجاة.

ثم تطلع إليها وقال مترددًا:

- ما رأيك لو خرجت من هذا المستشفى وقضينا سويًا فترة نقاهتي هنا في أسوان.. أعتقد أن أجواءها الساحرة تلائمني في تلك الفترة.

نظرت له دون أن تعقّب وإن اكتسى وجهها مجددًا بحمرة خجل زادتها جمالًا فتابع بنبرة رقيقة:

- لا أريد قضاء حياتي وحيدًا بعد الآن.

قالها ومد يده لتتعانق كفاهما، بعد أن تلاقت أعينهما في نظرة حب طويلة.

(27)

فندق سوفيتيل أولد كتراكت أسوان..

وقفت (سماح) تطالع نفسها أمام مرآة غرفتها في صباح ذلك اليوم المشرق الدافئ.. كانا قد وصلا إلى هذا الفندق أمس بعد أن استعاد (يوسف) عافيته، وسمح له طبيبه المعالج بمغادرة المستشفى مع بعض التحذيرات والإرشادات الطبية، وبعد أن عرجا في طريقهما على أحد محال الثياب وابتاعا ثيابًا جديدة تكفي لقضاء فترة إجازة قصيرة أخرى في أسوان.

عاينت نفسها مرة أخيرة، تأكدت من حُسن تصفيف شعرها ووضع الرتوش الأخيرة على وجهها الذي زينته بالقليل من مساحيق التجميل كعادتها دون إفراط فأبرزت جمال ملامح وجهها الدقيقة، تعطرت بعطر أنيق هادئ تفضله دومًا قبل أن تسرع لملاقاة (يوسف) في بهو الفندق كما اتفقا.

للحظة توقفت في غمرة حماستها.. للحظة خامرها شعور بالخجل من مشاعرها.. من اندفاعها المشبوب بعاطفة تجاهه والسعادة التي تتملكها بإفراط في كل لحظة تقضيها معه، لم تسمح أبدًا لتلك المشاعر من قبل بالسيطرة عليها، لكنها الآن تستعذب تلك المشاعر وتستكين لها كتيار يجرفها دون ممانعة منها.. ما الذي تغيّر؟..

هل هي الأيام الصعبة التي قضتها معه؟! أم دفاعه عنها بحياته؟! أم هي تلك النظرة المطلة من عينيه؟!

لم تدر بالضبط لكنها سعيدة وكفى.. سعيدة في وقتٍ تحتاج فيه إلى كل قطرة من سعادة ترطّب جفاف حياتها القاحلة.

نفضت تلك الأفكار عن رأسها، استقلّت المصعد إلى بهو فسيح، تنبعث من

مقاعات موزّعة في أركانه موسيقى كلاسيكية هادئة، بحثت عنه بعينيها حتى وجدته جالسًا يحتسي الشاي وقد تبدّلت ملامحه هو الآخر بدا أكثر وسامة بذقن حليقة وشعر ناعم صفّفه بعناية وملابس جديدة أنيقة.

اقتربت منه مبتسمة فبادلها الابتسام، أطلق صفيرًا قصيرًا وهو يتطلّع إليها في إعجاب أثار خجلها، تغلّبت عليه سريعًا بأن سألت وهي تجلس قبالته:

- هل لديك خطة معينة لقضاء اليوم؟

شعر بخجلها فأومأ برأسه قائلًا:

- الجو منعش والحرارة ليست مرتفعة، لذلك فكرت في قضاء رحلة نيلية إلى إحدى الجزر.

ابتسمت وقالت مداعبة:

- ليست جزيرة إجيليكا بكل تأكيد.

هز رأسه نفيًا وقال ضاحكًا:

- كلا بالطبع، كفاني ما لاقيته منها حتى الآن.

ثم مال نحوها مردفًا:

- سنذهب إلى جزيرة الفنتين.

تساءلت:

- لماذا هذه الجزيرة بالتحديد؟

ابتسم في هدوء وقال:

- بها العديد من المزارات السياحية الرائعة.. سوف تستمتعين بها بلا شك.

وافقته على رغبته، ذهبا سويًا إلى مرسى القوارب التابع للفندق واستقلا قاربًا تهادي بهما إلى الجزيرة، كانت تقع في قبالة الفندق مباشرةً وقريبة جدًا منه حتى أن (سماح) قالت بدهشة:

- وكأنك حجزت في هذا الفندق تحديدًا لزيارة هذه الجزيرة!

بدت ابتسامته التي تملأ وجهه تطفر بالسعادة فلم يعقّب على جملتها حتى وصلا إلى شاطئ الجزيرة الصخري، تعاونا معًا على الصعود وقضيا وقتهما في زيارة عدة أماكن أثرية على الجزيرة، وتطوّع (يوسف) بالشرح إلى (سماح) ليزيد من جرعة استمتاعها بالرحلة، شاهدا معًا مقياس النيل الذي أقاموه ملوك الأسرة السادسة والعشرون، بدرجاته الحجرية الهابطة والنقوش الهيروغليفية واليونانية التي توضّح مستوى فيضان نهر النيل على مر العصور، ومعابد الإلهة ساتت إلهة الفيضانات التي سادت عبادتها على تلك الجزيرة فأقام لها الملوك معابد مختلفة مثل سنوسرت الأول والملكة حتشبسوت، كما زارا معًا متحف الجزيرة أو متحف أسوان الذي يقع في الجزء الجنوبي الشرقي منها وأنشئ عام 1898م في بادئ الأمر كمقر لكبير مهندسي خزّان أسوان سير وليم ويلكوكس قبل أن تحوّله الدولة إلى متحف للعامة تم افتتاحه عام 1912م وحوى آثار منطقة النوبة التي استخرجت قبل وبعد إنشاء الخزّان.

قالت (سماح) في سعادة جمّة وهما يتناولان طعام الغذاء في أحد مطاعم الجزيرة، وقد شرعت الشمس في تخليها الإجباري اليومي عن عرش الأفق، وبدأت تتهاوى نازفة دماءها القانية على الموجودات حولهما:

- رحلة رائعة.. لم أتخيّل أن تكون الجزيرة بمثل هذا الجمال.

رشف رشفة من كوب العصير بجواره ثم قال:

- هل تعلمين أنه على مر العصور كانت تعسكر هنا واحدة من أكبر الحاميات العسكرية، وظلّت هذه الجزيرة درع وحصن منيع لتأمين حدود مصر الجنوبية.

قالت غير مصدّقة:

- هذه الجزيرة!

أومأ برأسه إيجابًا وقال:

- ربما لو حدثتك قليلًا عن التاريخ المجيد لهذه الجزيرة لزالت تلك الدهشة عن وجهك.

نظرت له باهتمام، فتابع قائلًا:

- هذه الجزيرة أطلق عليها المصريون القدماء اسم آبو أي الفيل..

رددت (سماح) بدهشة:

- الفيل.

- نعم الفيل، وهذا لأن الشكل الجغرافي للجزيرة يشبه ناب الفيل، جزيرة طولية تمتد إلى ألف ومائتان متر طولًا وعرضها أربعمائة متر فقط، وهي بذلك تشق نهر النيل إلى نصفين.

ازدردت (سماح) لعابها بصعوبة وبهرت أنفاسها وهي تستمع إليه بعينين متسعتين فاستطرد:

- فيما بعد أطلق عليها اليونانيون اسم جزيرة الفنتين أي سن ناب الفيل.

كانت المعلومات تتدفق إلى عقلها، والذهول ينطبع على ملامحها، فابتسم (يوسف) وأكمل:

- بعد أن نحتسي الشاي سوف أصحبك إلى الأثر الباقي على الجزيرة والذي لم تُلق نظرة عليه إلى الآن..

ثم حدّق في عينها مليًا وقال بنبرة خاصة:

- معبد الإله خنوم، الذي يتمثل لدي المصريون القدماءفي صورة رأس كبش ومقبرة الكباش القريبة منه.

كادت تقفز من مقعدها من فرط الحماس، أشار لها أن تهدأ كي لا تلفت الانتباه، فجلست متسائلة بذهول:

- هل تقصد أن...؟

لم تستطع من فرط الانفعال إكمال تساؤلها، فابتسم بثقة وأجاب:

- نعم.. البردية هنا على هذه الجزيرة.

استعادت على الفور كلمات والدها ورددت قائلة:

- أرضٌ وسط نهرٍ من الدماء.. قرون كباش وأسنة فيّلة تتطاحن.

استدرك قائلًا:

- نسيت إخبارك بأن معبد خنوم نُهبت أحجاره على مر الزمن، ولم يتبق منه سوى عمودي البوابة فقط.

لمعت عيناها دلالة على الفهم وأكملت مرددة:

- حارس بوّابة متهدمة لأرض تظلّلها النجوم.

ثم رنت ببصرها نحو (يوسف) بإعجاب قائلة:

- كنت تعلم منذ البداية مقصد والدي من تلك الكلمات.

اتسعت ابتسامته وهو يقول:

- ألم أكن يومًا ما تلميذ والدك النجيب.

قالت بيقين:

- وقد كان محقًا في ثقته بك.

مال نحوها هامسًا:

- بعد قليل وحين تهدأ الأجواء حول المعبد سوف نكتشف معًا فحوى تلك البردية الغامضة.

- لا أطيق صبرًا على الانتظار.

قال متفهمًا حماستها:

- لقد أوشكت الشمس على المغيب، لم يتبق الكثير من الوقت، فقط تحلي ببعض الصبر.

ثم لوّح بسبابته قائلًا:

- ثم أنك نسيت اتفاقنا.

نظرت له مستفهمة فقال:

- إنني لن أنهض من هنا قبل احتساء قدح من الشاي.

قالها وابتسم وبادلته هي الابتسام في سعادة غامرة.

* * * * *

مع اكتمال مغيب الشمس، سادت الزرقة الداكنة السماء، عمّ الهدوء تلك المنطقة من الجزيرة بعد أن غادرها السيّاح والزوار، انشغلوا في أماكن أخرى تجنبهم وتحتفي بهم عن طريق فقرات ترفيهية ومسهرات ممتعة، يقدمها القائمون على أعمال السياحة بالجزيرة.

على الرغم من كل ذلك وقفت (سماح) تتطلع فيما حولها باضطراب، تراقب المكان في حرص، بينما (يوسف) منهمك في الحفر أسفل العمود الأيمن لبوّابة معبد خنوم، استغرق ذلك منه الوقت الكثير حتى كاد يدبّ الإحباط في نفسه وتتنازعه نوازع اليأس، حتى (سماح) شعرت بذلك من زفراته الحانقة المتتالية، خالجها القلق والتوتر إلى أن سمعت تنهيدته الحارة وهو يقول بارتياح:

- أخيرًا.. حمدًا لله.

التفتت إليه فوجدته يعتدل منتصبًا، في يده صندوق خشبي صغير مزخرف بالنقوش الهيروغليفية والرسومات الفرعونية الملوّنة.. صندوق رفعه أمام عينيها قائلًا: ها هو ذا.

تساءلت برهبة: ألن تفتحه؟

أجاب على الفور:

- ليس هنا بالطبع.. لابد أن نتحرك سريعًا ونترك هذا المكان.

لم تمض نصف ساعة على كلمته هذه حتى ضمته وإياهاغرفته بالفندق، جلسا وأمامهما الصندوق على الطاولة الصغيرة، لم يدريا لِم ظلّا يحدّقا فيه بهذا التهيّب، كأنه قنبلة موقوتة ستنفجر في وجهيهما لحظة فتحه.. ربما

لما لاقوه في سبيل العثور عليه، أو ربما لأن آخر بصمات انطبعت عليه كانت بصمات مَن رحل غدرًا وضحى في سبيله بحياته.. لا أحد يعلم..

بعد برهة قطع (يوسف) الصمت وهو يعتدل في جلسته قائلًا:

- فيم انتظارنا إذن؟

لم ينتظر إجابة على سؤاله، مد يده ورفع غطاء الصندوق، تألقت عيناه حين اصطدمتا بالبردية تقبع داخله، التقطها بحذر وفضها، قال وهو ينظر إلى (سماح) بنبرة درامية قبل أن يبدأ قراءتها:

- الآن لحظة الحقيقة.

أخذت عيناه تجوبان سطور نُقشت على البردية.. تلك النقوش التي خطتها منذ قرونٍ خلت يد (نفر رع) في الهزيع الأخير لليلة صافية مقمرة.. غرق في لُجتها، ظهر ذلك جليًا على ملامحه، كانت تتبدل مع كل سطر و(سماح) تتابع بتركيز ونهم منتظرة لحظة البوح، لكن نتيجة انتظارها كانت ابتسامة ساخرة تحوّلت إلى ضحكة عالية طبعت علامات الدهشة على وجهها، بينما (يوسف) يقول:

- آه.. يا لها من نهاية.

لم تتمالك (سماح) نفسها فصاحت متسائلة: ماذا هناك؟!

نظر لها بعد أن وضع البردية مكانها داخل الصندوق وأجاب:

- لقد أدار والدك لعبته ببراعة منقطعة النظير وتلاعب بالجميع كيفما شاء.

- لماذا؟ هل البردية ملفّقة؟

- على العكس.. البردية أصلية، بل هي كنز في حد ذاتها.

صاحت بنفاد صبر:

- إذن ما الأمر؟ لقد سئمت تلك الألغاز ولم تعد لدي طاقة لها.

قال شارحا:

- كما قلت لك.. البردية أصلية تمامًا، لكن لا علاقة لها بتابوت العهد من قريب أو من بعيد، بل هي تتحدث عن تابوت آخر.

صعقتها الدهشة فتساءلت:

- تابوت آخر! كيف؟

استطرد في الشرح قائلًا:

- هذه البردية تعود إلى (نفر رع) الذي اكتشف والدك مقبرته كما ذكرت لك من قبل.. في هذه البردية يسرد (نفر رع) حقائق وقائع سياسية لتلك الفترة، وحجم الأخطار التي حاقت بالمملكة، وهواجس الملك (واح إيب رع) وما يخالجه من شك ظل يتعاظم تجاه (أمازيس) قائد الجيش، وخشيته من انقلاب هذا الأخير عليه، و(أمازيس) هذا كان من عامة الشعب، ينتمي لأسرة رقيقة الحال، وُلد في قرية تدعى سبيوفي على مقربة من العاصمة سايس، لكنه كان حاد الذكاء.. قوي الشكيمة.. معسول الكلام، والأخطر أنه ذو تطلعات لا حدود لها تفوق منزلته ومنزلة أسرته الوضيعة.. لذلك عهد الملك (واح إيب رع) إلى جمع ما استطاع من كنوز بعيدًا عن أعين المتربصين وإخفائها داخل تابوت في مكان سري لا يعلمه أحد سوى هو وكبير الكهنة وطبعًا (نفر رع) ذاته.

- ولماذا يفعل ذلك؟

- حتى يتسنى له الهرب لو شعر بدائرة الخيانة تطبق عليه، ويستفيد من

ما جمعه من كنوز في تكوين جيش من المرتزقة اليونانيين الذين كثر تواجدهم في تلك الفترة، ويعود ليسترجع عرشه من جديد بقوة المال والسلاح.

- وهل نجح؟

هز رأسه نفيًا وأجاب:

- كلا، ما وصل إلينا من التاريخ يؤكد أن الشقاق والتناحر بين فصائل الجيش بلغ أشده، وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير حين أرسل الملك فصائل من الجند المصريين إلى بلاد لوبيا- (دولة ليبيا حاليًا).. لمجابهة الفصائل اليونانية التي تتوغل هناك، ورأى ألا يرسل جنده اليونانيين لمحاربة بني جلدتهم، لكن المصريين لقوا هزيمة منكرة عند منطقة تدعى أراسا قريبة من عين تستي وهي منطقة غاية في الخطورة لمجاورتها الهضاب العالية لسيريني وتنتهي بالصخور شديدة الانحدار المسماة مرمريقا.

تذكر انك حملت رواية تابوت العهد حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

عند وصول الفلول الهاربة إلى معسكر ماريا أخذوا يثيرون الغضب حول الملك، اتهموه أنه أرسلهم وحدهم بغرض التخلص منهم في ميدان القتال لأنه كان يشك في ولائهم له، فاندلعت نيران ثورة كانت تتكوّن في الخفاء من سنين عدة.

- وما دور (أمازيس) هذا في ذلك؟

- (أمازيس) عمل على تأجيج تلك الثورة تجاه الملك (واح إيب رع)، منحت له الفرصة جزاء ما حدث، ويقال أن الملك أرسله إلى معسكر ماريا حيث الجند الحالقون لتهدئتهم فوضع هؤلاء تاجًا على رأسه ونادوا به ملكًا عليهم، حين علم الملك بهذا أرسل له رسول يدعى (باناريميس) وهو أحد القادة الكبار كي يدعوه للعودة معه، لكن عندما وصل الأخير إلى المعسكر وجد (أمازيس) قد أعد عدته وجهز جيشه وحين أبلغه (باناريميس) رسالة الملك رد بإهانة بالغة وحمّل ذلك الرسول تلك الإهانة، وعندما علِم الملك غضب غضبًا عظيمًا وثار في وجه (باناريميس) بل وأمر في فورة غضبه بجدع أنفه وصلم أذنيه مما أثار استياء البقية الباقية ممن كانوا ما يزالون يدينون له بالولاء فتفرقوا من حوله وانحازوا إلى الفريق الآخر.

تساءلت (سماح) بشغف:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

أجاب (يوسف):

- تجهّز (واح إيب رع) بثلاثين ألف مقاتل عند مدينةمومنفس في الشمال الغربي من الدلتا وتدعى حاليًا بلدة كوم الحصن وتبعد ثلاثين كيلو متر عن مدينة دمنهور.. حين تلاقى الجيشان ظهر التفوق الواضح لصالح (أمازيس) ومن معه من الجند الثائرون، كانت لهم الغلبة منذ بداية المعركة وتمت إبادة قوات الملك وأسر هذا الأخير وسيق إلى قصره بالعاصمة سايس مكبلًا، لكن (أمازيس) لم يقتله بل يشاع أنه وضعه بجواره على العرش، غير أنه جلبه غضب المصريين فسلمه لهم وقتلوه خنقًا.

- نهاية مأساوية.

- بالتأكيد.. لكن (أمازيس) الذي نصّب نفسه ملكًا منفردًا على البلاد ولقّب نفسه (أحمس الثاني)، أقام له مراسم جنائزية ملكية ودفنه في مقابر أسلافه بجوار المعبد الكبير.

صاحت (سماح) بانفعال:

- إذن فالتابوت ما يزال في مكمنه، ينتظر مَن يستخرجه بما يحويه من كنوز.

- نعم.. هذا هو التابوت المفقود.

- وأين مكانه بالضبط؟

هز رأسه في حيرة وأجاب:

- لم يذكر (نفر رع) مكانه بالتحديد، كأنه كان يخشى وقوع هذه البردية في اليد الخطأ، ولم يبح بشيء سوى روايته لما عاصره من أحداث.

صاحت بضيق:

- غير معقول.. لابد وأن هناك شيئًا آخر.

قال بتأكيد:

- صدقيني لا شيء سوى هذه الكلمات التي ختم بها روايته.

قالها وفض البردية من جديد وقرأ بصوت مسموع..

"لكل بداية نهاية.. وكل شيء إلى زوال.. ما أتى زال وما سيأتي سوف يزول..

مهما تشعّبت الفروع وازدهرت حولها الأوراق تظل متأصلة في جذور

راسخة غُرِست منذ القِدَم في أرض الأجداد..

فيا مَن ترعاك الآلهة.. عد إلى الأصل.. تجد الحقيقة تنتظرك.. تحفظها وتحميها واجدة الأرض والسماء"..

قطبت جبينها متسائلة:

- ما معنى هذا الكلام؟ أهي رسالة لشخص ما؟

- بالتأكيد لكني لا أعرف فحواها.

تراجعت في مقعدها وهي تزفر في يأس فقال مهوِّنًا:

- لا عليك.. في النهاية نحن حفظنا البردية سالمة ورسونا إلى شاطئ الأمان بعد أن انتقمنا من قتلة الدكتور (فاروق).

قالت بتأكيد:

- صدقت.

ثم عادت تقول بعد وهلة من الصمت في غضب طفولي:

- لكني كنت أرجو العثور على هذا التابوت.

ابتسم قائلًا:

- ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

- صدقت مرةً أخرى.

قالتها بإحباط وإن كانت تستشعر طعم المرارة لهذه النهاية.. مرارة شاركها معها (يوسف) وإن طوى عليها جوانحه.

*****

(29)

البيت من جديد..

هذا ما خطر في عقل (يوسف) وهو يدلف إلى شقته التي غرقت في الظلام.. شعور غامر بالراحة اجتاحه وهو يُلقي بجسده على أقرب مقعد في ردهة منزله.. كان كل شيء على حاله كما تركه آخر مرة وهو يغادر مسرعًا للحاق بذلك الموعد المشئوم الذي تركه وحيدًا مع جثة استاذه..

ترى كم مر من الوقت منذ تلك اللحظة إلى الآن؟ إنه يشعر كمَن غاب دهرًا، بينما في الحقيقة أنها أيامًا معدودات لا يكاد عددها يتجاوز أصابع اليدين..

عجيبٌ هو أمر الزمن، يمضي ثقيلًا بطيئًا كسلحفاة حينًا، ومسرعًا خاطفًا كالبرق حينًا آخر.. لكن في الأخير كل شيء ينتهي.. صدق (نفر رع) حين قال أن لكل بداية نهاية، وإن ما من شيء أتى إلا وزال، وما من شيء سيأتي إلا وسيزول.. كم كنت حكيمًا أيها المصري القديم!

هكذا هو الحال.. دائمًا بدايات تقود إلى نهايات، العاقل فقط ومَن يمتاز بالحكمة والبصيرة هو مَن يتتبع خيوط البدايات ليعود إلى الأصل.. إلى الحقيقة.

لحظتها اعتدل (يوسف) في مقعده، التمعت عيناه ببريق خاص حين تداعت إلى رأسه الأفكار كالسيل المنهمر والكلمات تدوي داخل عقله من جديد..

"مهما تشعّبت الفروع وازدهرت حولها الأوراق تظل متأصلة في جذور راسخة غُرِست منذ القِدَم في أرض الأجداد..

فيا مَن ترعاك الآلهة.. عد إلى الأصل.. تجد الحقيقة تنتظرك.. تحفظها وتحميها واجدة الأرض والسماء"..

يا الله.. كيف لم أنتبه!

أخرج هاتفه الجوّال وطلب رقمًا سريعًا، أتاه على إثره صوت (سماح) المتعجب وهي تتساءل:

- ما الأمر يا (يوسف)؟

أجابها بنبرة يغلّفها الحماس:

- ما رأيك لو قمنا غدًا برحلة جديدة؟

قالت ضاحكة:

- هل جننت أخيرًا؟! لقد انتظرت هينًا كهذا.

- انصتي إليّ، ربما لم تنتهي رحلتنا بعد.

- ماذا تقصد؟

- سأخبرك بكل شيء في طريقنا غدًا.

اتفقا وأنهى المكالمة، بينما جسده بأكمله يشتعل حماسًا.

بعد مرور ستة أشهر..

اكتظت تلك القاعة الواسعة.. شديدة الفخامة.. التابعة لأحد أكبر فنادق القاهرة بالضيوف والمدعوين من مختلف الجنسيات، رجال هيئة الآثار المصرية، وعلى رأسهم رئيس الهيئة والسيد وزير الآثار، والعديد من الصحفيين والمراسلين التابعين لكبرى الصحف والشبكات الإخبارية

المتلفزة..

تراصت كاميرات تصوير الفيديو بجوار بعضها، كل واحدة تحمل شعار شبكة تليفزيونية مختلفة، سطعت فلاشات عدسات المصورين التي توجهت جميعها نحو منصة شرفية توسطها (يوسف)، بدا شديد التأنق والوسامة وهو جالس تغمره السعادة والثقة بالنفس بعد أن نجح في تحقيق هذا الكشف الأثري المذهل.. مذهل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث استغرق رجال الحملة الأثرية العديد من الأيام فقط لحصر كل هذا الكم من الكنوز الذي لم يسبق أن عُثر عليه في مقبرة واحدة سوى في مطلع القرن الماضي، داخل مقبرة الملك توت عنخ آمون، على يد الباحث هوارد كارتر ذائع الصيت.

كان (يوسف) نجم اليوم بلا منازع، لكن هذا الأخير أبى أن يستأثر بالنصر وحده ويُنسَب له الفضل منفردًا، لذلك نجد صورة دكتور (فاروق) الكبيرة التي عُلِّقَت بفخر خلف المنصة، فأصبح الحفل مزيج من إعلان عن كشف أثري هائل وتأبين لفقيد عظيم.

في صدر الحضور، وبالتحديد في منتصف الصف الأمامي، جلست (سماح) تكاد تغالب دموعها بصعوبة.. دموع الفخر والسعادة بتلميذ والدها النجيب، ومَن لان له قلبها بعد طول جمود، وهو يحقق نصر جعله محط أنظار الجميع في كل بقاع الأرض.. تخالطها دموع على مَن كانت تتمنى أن يشهد تلك اللحظة رؤى العين، ودون أن تدري وبلا شعور منها، انساب تفكيرها مبتعدًا نحو ذكرى ليست بالبعيدة.. ذكرى عدة شهور مضت..

- لقد اقتربنا.

قالها (يوسف) بأنفاس لاهثة وقلب مفعم بالحماس، دماؤه تكاد تشتعل بالأمل وهو يتقدم (سماح) إلى تلك المنطقة النائية بقرية صالحجر، بحث

عن بقعة محدّدة جعلته يدور بعينيه في الأرجاء واللهفة تتقافز منهما، بينما (سماح) تتطلع إلى تلك الأحجار المتناثرة، التي كانت يومًا ما قصورًا ومعابد وبيوت تحوي أحلام قاطنيها وآمالهم، استغرقها التفكير في هذا الأمر وقد شعرت برجفة تسري في أوصالها أمام هيبة الزمن، لحظة أن تداعى إلى عقلها منزلها وحياتها حين يأتي غيرها بعد قرون ليجدها أطلالًا منثورة ويقف ليعتبر.

تذكر انك حملت رواية تابوت العهد حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

أفاقت على صوت (يوسف) يهتف بانتصار: ها هو ذا..

توجهت إليه لتجده يقف بين مجموعة من الأحجار القديمة، تراصت في شكل هندسي يوحي بأنها بقايا أثر ما قام في هذا المكان، لكنها تساءلت:

- لماذا هذا المكان بالتحديد؟

أجاب وهو يُشير بيده إلى نقاط بعينها:

- هذه الأطلال هي كل ما تبقى من الأعمدة الرئيسية لمعبد الإلهة نيت.

ثم أشار إلى موضع آخر واستطرد:

- وهنا كان يقع تمثالها الضخم في واجهة المعبد.

قالها وأخرج من حقيبة صغيرة علّقها على كتفه ورقة كبيرة تحمل رسمًا هندسيًا فردها أمامها مكملًا:

- أنظري إلى الرسم التخيلي في هذه الورقة وقارني بينهوبين ما تبقى من

أطلال.

لاحظت (سماح) التشابه بين الرسم والأساسات المتبقية من المعبد القديم وقالت مؤهنة على كلامه:

- هذا صحيح.

ابتسم بحقة فعادت تسأل بدهشة:

- لكن ما صلة هذا المعبد بتلك الكلمات في البردية.

أجاب وابتسامته تتسع:

- الحقيقة أن الكلمات لم تكن غامضة تمامًا كما ارتأينا،الحديث عن الأصل وبداية كل ما له نهاية، والجذور التي غُرِست في أرض الأجداد تقودنا إلى هذا المكان.. مدينة سايس.. منشأ سلالة الأسرة الصاوية.. من هنا انحدروا، ومن هنا حكموا مصر لسنوات.

- ولماذا هذا المعبد بالتحديد؟!

- السر تحفظه وتحميه واجدة الأرض والسماء، بتلك الكلمات كان (نفر رع) يعني الإلهة نيت.. أم الآلهة، وواجدة الكون.. أرضه وسماؤه.. كما اعتقدوا.

تنبهت إلى مراده فتدفقت عدوى الحماس إلى عروقها وصاحت:

- إذن التابوت ثفن هنا.

- بلا شك، ظلّ مدفونًا بأمان تحت ناظري الإلهة نيت.

استعادت (سماح) تلك الذكرى فارتسمت ابتسامة سعادة واسعة على وجهها، تنظر إلى (يوسف) بإعجاب وهو يتحدث إلى مجموعة من

الصحفيين والإعلاميين ويُجيب عن أسئلتهم بكل هدوء وثقة، بينما يختلس لها النظرات بين الفينة والأخرى، حتى انتهى الموعد المحدّد للمؤتمر وفرغت القاعة من الحضور بعد أن تلقى (يوسف) منهم التبريكات والتهاني، فوقف قبالتها في صمت وقد تلاقت أعينهما، قبل أن يقطع هو دابر هذا الصمت حين قال:

- أعلم ما يعتريك الآن.

- حقًا.

- أنا أيضًا مثلك، كنت أتمنى لو كان بيننا في هذه اللحظات.

التمعت عيناها بدموع جاهدت هي في قيدها، فتطلع (يوسف) إلى الفراغ من حوله ثم لوّح بذراعيه على جانبي جسده مكملًا:

- لكنه حولنا، وبالتأكيد يشعر بنا ويفرح لنجاحنا ويرهدنا دومًا كما أرشدتنا سطور كلماته إلى بر الأمان.

- كم افتقده.

- صدقيني لست وحدكِ في هذا الشعور، فقد كان أستاذي ومعلمي ومَن عوضني فقد والدي.. لكن عزائي أن حضوره قائم ولا يزال بيننا.

نظرت إليه في صمت فتابع بيقين:

- ليس الموت رحيل الجسد، بل ضياع الذكرى من القلوب وغزو النسيان على العقول، وهو سيبقى دائمًا في عقلينا وقلبينا ما حيينا.

تحوّلت نظرتها إلى الامتنان بعد مواساتها بكلماته، فنظر لها برقة وبمشاعر جاش بها صدره وقال بصوت متهدج:

- يكفي أنه حباني بأجمل هدية في حياتي كلها.

توردت وجنتاها وارتسمت ابتسامة عذبة على وجهها التي خفضته في خفر، مد يده نحوها يلتقط كفها بحنان وترك عينيه ترتوي من عينيها وقال:

- عديني أن تبقي بجواري ما حييت.

قالت بصدق:

- ليس لي سواك.

- وأنا ليس لي سواك.

قالها ورفع كفها ليلثمها بشفتيه بعد أن تعاهدت عيناهما، سارا معًا بكفين متعانقين وقلبين عامرين بالحب وروحان تلاقتا بعد طول شرود..

سارا نحو المستقبل تتابعهما ملامح (فاروق) الهادئة، المنطبعة على صورته الكبيرة حتى يُخَيَّل كما لو أنها تبتسم.

* * * * *

تمت بحمد الله